الملحق هـ: رسائل الجدّات

الجدّة	الأحفاد
سلوى	مروان
سعاد	كريم
ليلى	دارين

الوحدة ١

الوحدة ١ | الدرس ١ صندوق الألغاز: مغامرتك تبدأ

أعزّائي مروان ودارين وكريم:

كان الأمر قد بدأ بشكل سهل وسلس؛ سنكون بمثابة الاستثناءات على القاعدة. أحلامنا ستتحقّق، ولن يقوى أحد على الوقوف بيننا وبين استمتاعنا بحياة سعيدة حتى النهاية. كنا متأكّدين أنّنا سنحظى بهذا النصيب المُشرق. آه، كم كنّا أغبياء في ذلك الوقت!

كنّا أصدقاء كلّ حياتنا. جلسنا معًا على مقاعد المدرسة، تورّطنا في مآزق معًا. كانت سنتان تفصلان بين زواج كلّ واحدة منّا، حتى تسنّى لنا رؤية أولاد بعضنا بعضًا ينمون معًا خلال مراحل الحياة.

واجهنا صعوبات الحياة مع خيبات الأمل فيها، وبقينا أصدقاء عبرها جميعها. في الواقع، كنّا بين أوائل المُرحِّبين بكم لدى دخولكم هذا العالم. فنحن جدّاتكم.

مروان، اليوم الذي وُلدتَ فيه صادف أوّل ما ابتدأت سلوى، جدّتك، بالتفكير في سبيلٍ للوصول إلى ما بعد حدود الزمان والمكان. رحنا نُجرّب ذلك كلّ ليلة. بالطبع، بدت محاولاتنا الأولى خرقاء وتفتقر إلى التخطيط.

دارين، احسبي نفسك محظوظة بما أنّ جدّتك، ليلى، تخلّت عن فكرة إشراك عصابة «المافيا» في خطّتنا قبل فوات الأوان! لكننا كنا نحتاج إلى مفكّر فطن نظير ليلى لتجاوز أعظم العوائق أمامنا، أنتم الثلاثة.

كريم، جدّتكَ سعاد هي التي أقنعتنا أخيرًا بضرورة سلوك طريق السرّيّة. من أجل هذا، ليس لدى أيّ واحد منكم أدنى فكرة عن محتوى الصندوق أمامكم.

آه، كم تسلّينا وذرفنا الدموع أيضًا. لم يكن عندنا أيّ فكرة كم سيُكلّفنا اختبارنا. فالعيش خارج نطاق الزمان والمكان يفرض علينا ثمنًا موجعًا. هذا ليس من نصيب الجبناء أو الذين ينهارون بسهولة. كانت هناك أوقات فيها شعرت كلّ واحدة منّا بأنها مزمعة أن تتخلّى عن سعيها، لولا ما لقَيته من دعم وتشجيع من الاثنتين الأخريين، ورؤية ما سيعنيه كلّ هذا بالنسبة إليكم يا أحفادنا الأعزّاء.

بالطبع، لم تعودوا أولادًا. في الواقع، من أجل هذا جرى استدعاؤكم في هذا اليوم المحدّد لكي تحضروا إلى مكتب معلّمتكم. فكّرنا بادئ الأمر أن ننتظر ريثما تكبرون في السنّ. لكن، مع كلّ سنة تأخير، فإنّ المرحلة الأخيرة من اختبارنا السرّي من شأنها تعريض كلّ واحد منكم لخطر أكبر، مع بروز المزيد من الأمور للتغلّب عليها، في حين يتوافر لكم وقت أقلّ لتعلّم كيفيّة الانتصار عليها.

هل سمعتم قبلاً عن «مراسيم العبور»؟ هذا المفهوم قديم كقِدَم الزمان. مثالٌ على ذلك، هو اللحظة أو المرحلة التي يُصبح فيها الفتى رجلاً، والفتاة امرأة بالغة. لا يزال هناك قبائل في أفريقيا ترى أنّ النضج الذكوريّ يحصل في ذلك اليوم الذي فيه يقتل الشاب أوّل أسد بواسطة رمحه. يبدو هذا بربريًّا، أليس كذلك؟ لا بل هو عمل خطر وربما أحمق. بالطبع، ثمّة مراسيم أخرى للعبور. بعضها غير مؤذٍ إلى حدّ ما. بالمقابل، بعضها الآخر قد يكون قتّالاً. نحن نعرف هذا. فنحن الثلاثة، لا نزال نحمل آثار الجروح الناجمة عن مُشاركتنا، عن جهل، في بعض مراسيم العبور التي أسأنا اختيارها.

معلّمتكم تعرف ما في داخل الصندوق. وكونها قد استدعتكم إلى هنا اليوم، ففي هذا، برهان على أنها تؤمن بأننا تصرّفنا بشكل حكيم من نحوكم، وهي على استعداد أن تكرّس نفسها في سبيل هذا العمل.

حسنًا، نحن هنا. إنه الوقت للاختيار. قُولوا «نعم» لّلغز. افتحوا الصندوق. اكتشفوا لماذا كنا على استعداد لتعريض أنفسنا لأمور مدهشة ومؤلمة، حتى نكون الدليل لكم في هذا السّعي. وإلّا انصرفوا من هنا.

مع كلّ محبتنا

جدّاتكم

الوحدة ١| الدرس ٢ تخيّل حياتك: الأحلام والعوائق

أحبّائي،

عند هذا الحدّ، لا نعرف إن كنتم قد أجبتم عن سؤالنا أم لا. ربّما لم تُفكّروا في هذا من قبل. أو قد تكونون سلكتم الدربَ نفسه الذي سرنا فيه نحن. سلوى ظنّت أنها ستموت عندما كانت في عمركم، إن لم يبدأ أحد الفتيان بالاهتمام بها. لم يمت هو، ولا هي ماتت أيضًا. سعاد كانت تبغي فقط أن يسود السلام بيتها، بما أنّ والديها لم يكونا أبدًا، كما يبدو، على وفاق. من جهّتها، ليلى كانت على استعداد للتضحية بكلّ شيء تقريبًا من أجل الفوز بمباراة في الرقص. العبرة من وراء كلّ هذا، هي أنّ كلّ واحدة منّا راحت تنتقل من شيء إلى آخر، ظنًّا منها في كلّ مرّة أنّ في ذلك الجواب لِأعمق رغبات الحياة. ليلى وشريكتها فازتا في المباراة؛ لكن سواءً حقّقتا الفوز أم مُنيتا بالخسارة، كان لا يزال هناك جوع في حاجة إلى إشباع عند كلّ واحدة منهما.

بعد أن قضينا حياتنا كلّها في السعي، بتنا جميعنا نُجمع على أنّ ما يصبو إليه القلب مغلّف بأمرين: ١) أن يكون لديك مفهوم واضح لهدفك الشخصيّ؛ و ٢) الحواجز التي قد تقف في درب بلوغها. فوّت عليك أمرًا منهما، فتنقص الحياة بشكل ملحوظ. بالطبع، "الإثارة المرتبطة بالرومانسيّة الغراميّة" كما "المغامرة"، عبارتان لا تخلوان من التقلّب. والمدهش في الأمر، عدد التشويهات التي تطال كلّ واحدة منهما. صرّحَت مرّة صديقة بالقول: "الإثارة المرتبطة بالرومانسيّة الغراميّة كما المغامرة، تعني الجنس، والمخدِّرات، ورقصة الروك أند رول!" لكن، هل هذا صحيح؟

جداتكم

الوحدة ١| الدرس ٣ الحرّيّة والمسؤوليّة

أيّها الأحبّاء:

هل سبق لكم أن قابلتم شخصًا يرغب في التمكّن من الطيران؟ لا كراكبٍ في طائرة، بل يطير فعلاً كطائر، أو بطريقة سحريّة ما. ولعلّكم أنتم حلمتم بأنه كان بمقدوركم الطيران. يا كريم، كان جدّك باسم يعمل في مصنع للطائرات داخل مدينة في الشمال لصناعة المُقاتِلات الحربيّة – حقًّا كم كانت هذه الطائرات رائعة. كانت مَهمّته تقتضي لصق الجوانح بأجسام الطائرات. كان هذا الأمر بغاية الأهمّيّة، ألا تظنّ ذلك؟

الأمر المُضحك هو أنه كان يقصد دائمًا إلصاق جناحين بكلّ طائرة. صنعوا جميع تلك الطائرات، ولم يُحاولوا، ولا حتى مرّةً واحدة، أن يُطلقوا طائرة لا تحمل سوى جناحٍ واحدٍ. قولوا لي، أيّ جناح هو الأهمّ، الجناح الأيسر أم الأيمن؟ يا له من سؤال سخيف. فلكلّ واحد منهما أهمّيته. ففي غياب أيّ منهما، تسقط الطائرة أو لا تقوى أبدًا على الإقلاع.

أفترضُ وجود عدد من الأشياء بإمكاننا كتابتها على "أجنحتنا". هذه الأشياء لها أهمّيّة كبيرة بالنسبة إلى الحياة. لكن، دعونا اليوم نُدوّن على جناحَي كلّ واحدة من الطائرات الورقيّة التي صنعتموها للتوّ اثنين من أهم هذه الأشياء:

على الجناح الأيمن، دوّنوا "حرّيّة".

على الجناح الأيسر، دوّنوا "مسؤوليّة".

الآن، انزعوا أحد الجناحين من طائراتكم.

والآن، حاولوا تطيير ما تبقّى من طائراتكم"، تابعت الرسالة.

الوحدة ١ | الدرس ٤ عادات تقيِّد عادات تقوّي

"أردنَ الجدّات منّي إخباركم عن مقبض للباب يكتنفه الغموض، بل بالحري عن مقبضين اثنين. حرِّكْ أحدهما وادخل حياة من السعادة التي لا يُعبَّر عنها. لكن حرِّك الآخر، فتظهر المعضلة. حرِّك الآخر فينتهي كلّ مزاح، وتفترس ظلمة رهيبة روحك وتلتهمها."

"في أرض شمس منتصف الليل، وبعيدًا عن شواطئ الحضارة، حيث الحياة صعبة، والموت يسود، ثمّة هوّة محفورة عند الغسق مُحاطة بجدران صخريّة عالية لا تُختَرَق. هناك بابان جُعلا في عمق الصخر، الباب الواحد محاذٍ للآخر، أحدهما إلى اليسار، والآخر إلى اليمين، وكأنّهما حارسان صامتان للغموض والرغبة، للرّجاء واليأس.

من حين إلى آخر، يُنزِل صاحب الحفرة تائهًا مسكينًا إلى الحفرة بواسطة الحبال. لم تكن كلماته إلى السجين لتتبدّل أبدًا: 'اختر مصيرك. وراء أحد البابين سعادة وراحة لا توصفان؛ وشبع يفوق كلّ خيال. بالمقابل، وراء الباب الآخر هناك ما يجمّد روحك ويجعل الموت يبدو عذبًا. اختر، اختر مصيرك!'

يُترَك التائه لحسم أمره. سارع بعضهم لاختيار هذا الباب أو ذاك، فحرَّكوا المقبض وواجهوا مصيرهم. آخرون أجّلوا هذا القرار قدر الإمكان إلى أن كادوا يجنّون تحت وطأة الجوع أو العطش. وفي نهاية المطاف، كلّ من جرى إنزاله في الحفرة، اختار أحد البابين. والحقّ يُقال إنّ كلمات صاحب الحفرة كانت تصحّ دائمًا.

لكن كيف يتمّ الاختيار؟ هل هي مسألة حظّ ليس إلاّ، أم بناءً على شيء آخر؟ وهل التائه متروك للصدفة العمياء؟ أم هل هناك ما يُمكن اكتشافه من الظرف الذي يمرّ فيه لمساعدته على اتّخاذ قرار مبنيّ على معرفة؟

"عاجلاً أم آجلاً، واجهَتْ كلّ تائه مفاجأة مشابهة. فالحياة أو الموت لم يحضرا عند مدخل أيّ من البابين. ذلك لأنّ خلف كلّ باب كان هناك باب آخر، وآخر خلفه. والقرار باختيار هذا الباب أو ذاك، كان يجب اتّخاذه مرّات لا تُحصى. بعضهم اختاروا الباب الأيسر أو الأيمن وثبتوا على قرارهم هذا، إلى أن كشف الباب الأخير مصيرهم. آخرون أخذوا على التنقّل بسرعة بين البابين تارةً باتّجاه الباب الأيسر وطورًا باتّجاه الأيمن. لكنّ كلّ واحد حسم أمره في نهاية المطاف على الباب الأيمن أو الأيسر. فيما راح المقبض يدور الواحد تلوَ الآخر لكشف شيء قليل آخر من اللغز."

" فمع توافر بعض الدلائل خارج المجموعة الأولى من الأبواب، ظلّت هذه الدلائل مبهمة وغير مقنعة لصاحب الخبرة القليلة في الاختيار بين الأبواب. لكنّ الجميل في الأمر هو أنّ الدليل كان يتّضح أكثر مع كلّ باب جديد. فرائحة الحياة الزكيّة أو الرائحة النتنة المنبعثة من التعفّن، راحت تفوح أكثر فأكثر كلّما توغّل أحدهم في الداخل. كما أنّ أصوات الاندهاش أو العويل، ازدادت تميّزًا بعضها عن بعض. لكن هنا بالتمام كان يكمن الخطر! ذلك لأنّ كلّ رائحة لم تكن مُدرَكة بالحواس. كما أنّ أصوات نفير التحذير أو نفير الرجاء، كانت تكمن في الضجيج المتصاعد وراء معظم التائهين. فكلّ خَيار كان يعمل على تعزيز الخَيار التالي، حتى لم يبقَ سوى مجال ضئيل للاختيار. وعلى هذا الأساس، بات مصير كلّ واحد مرتبطًا ليس بخَيار واحد، بل بسلسلة طويلة من الخَيارات.

وماذا كان يوجد وراء كلٍّ من الأبواب؟ آه، الكلّ يعتمد على راوي القصّة. تزعم رواية قديمة أنّ حوريّة جميلة تنتظر خلف أحد البابين فيما يربض نمر مفترس وراء الآخر. لكنّ أولئك الرواة الذين يصوغون كلماتهم حتى تكون أقرب إلى الواقع، يتحدّثون عن أفراح ومسرّات مختلفة. يتحدّث أحدهم عن التأثيرات الوخيمة للمخدِّرات التي تشلّ الذهن وتُصيبه بالذهول. كما أنهم يُخبرون عن الجروح الناجمة عن إقامة علاقات جنسيّة غير شرعيّة والتي تترك المرء أشبه بصَدَفة فارغة.

يُشيد أحدهم بالمكافآت المترتّبة على الضمير النقيّ فيما يحتفي آخر بالشبع الناتج من الحياة التي نُحسن عيشها. لكن هناك إجماع على أنّ ما من خَيار واحد يُحتّم على الفرد مصيره الأبديّ. كما أنّ الكلّ يتحدّثون عن النتيجة المتراكمة للخَيارات، سواءً كانت للخير أم للشرّ. والجميع أكّدوا أنّ كلّ واحد منّا هو تائه معرّض للوقوع في حفرة الاختيارات.

الوحدة ١ | الدرس ٥ معًا نحن أقوى: جماعة التعلّم المثاليّة

لا رسالة للجدّات

الوحدة ٢

الوحدة ٢ | الدرس ٦ ماذا تعرف عن المخدِّرات؟

أحبّاءنا:

ذات يوم، عندما كان لا يزال أبو مروان في سنّ الصبا، عثر على فأر صغير من فئران الحقول. حدث ذلك في شهر أيلول (سبتمبر) وكان يخشى ألّا ينجو الفأر من الشتاء ويبقى على قيد الحياة. إلى ذلك، كان يُريد فعلاً الاحتفاظ به كحيوان أليف. أخفاه لبعض الوقت داخل علبة من تنك خبّأها وراء كومة من الخشب. كان يرمي للفأر "مِستِك" كما سمّاه، قطعًا صغيرة من الخبز مع الجبن، ظنًّا منه أنه لن يتسنّى لأيٍّ كان اكتشاف الإضافة الحديثة إلى أفراد البيت.

جاء اليوم الذي اكتشفت فيه سلوى، جدّة مروان، أمر العلبة وراحت تتساءل عن السبب وراء وجود هذه العلبة الجميلة في مكان غريب كهذا. فتحتها، وكاد صراخها يصل إلى القمر!

دعوني أُخبركم عن مصيدتين. العديد من الفتيان والفتيات من عمركم بدأوا اللهو بهذه المصايد وتجربتها، من دون حدوث أيّ شيء في بادئ الأمر! برأيكم، ماذا يفعلون؟ يُواصلون اللهو بها. ومع الوقت، يقتنعون، وعلى غرار "مِستِك" أنّ ما يقومون به هو آمن بالتمام. ثمّ... تُطبق المصيدة عليهم! عندئذٍ، يكونون قد سطّروا بأيديهم مصيرهم المأساوي.

"أجل، لكن ما هما هاتان المصيدتان؟" سأل مروان. "هل هما حقيقيّتان، أم مجرّد صيغة أخرى من فُكاهات جدّاتنا الغريبة؟"

لو أنّ تعاطي المُخدِّرات قتل كلّ شابّ أو شابّة اختبره، لما أصبَحت هذه المُخدِّرات تُعتبر بمثابة تجربة عظيمة. لكنّها بما أنها تبدو آمنة، وأيضًا ممتعة وملذّة بهذا المقدار، فهي تحتفظ بسُمّها القتّال عندما تُطبق على فريستها.

كما أنّ مصيدة أخرى بدأت تحوم حول أصدقائكم الأكبر سنًّا، لإغوائهم لتجربة الأمور الجنسيّة. فالعواقب الرهيبة المُترتّبة على ممارسة الجنس خارج نطاق الزواج، والتي تشمل المرض والحَبَل والأذى العاطفي، لا تظهر فورًا. ففي ظنّهم أنّ ما يُقدِمون عليه هو آمن بالتمام.

جدّاتكم

الوحدة ٢ | الدرس ٧ نتائج المخدِّرات على الجسم

أحبّاءنا:

عزَمنا على نقل حقيقة الأمر الذي حصل معنا إليكم عندما بدأنا هذه المغامرة. ليس لأنّ أحدًا من جيلنا كان قد حصل على التشجيع اللازم للتكلّم بصراحة كهذه. كان من الأسهل بكثير أن نأخذ هفواتنا وزلّاتنا معنا إلى قبورنا. لقد علّمتنا تربيتنا أن نرى في صمتنا هذا أمرًا بطوليًّا. لكنّ هذا المنحى هو خاطئ في نظرنا.

المسائل الشخصيّة نادرًا ما تكون محصورة بالشخص نفسه لأنّ تأثيرها ونتائجها يطال الآخرين أيضًا. أظنّ أنّ "دوستويفسكي" دوّن في مكان ما: "الخطيئة تولّد خطيئة." بكلام آخر، تؤثّر المشاكل العائليّة في جيلٍ تلوَ الآخر. لذلك أرادت ليلى أن تكتب ما حصل معها.

"عزيزتي دارين:

أخشى أن أكون أنا، جدّتك ليلى، هي البادئة بكشف السرّ الذي لطالما أخفيته عنكِ وعن كلّ شخص آخر.

يُنظر إلى الأطبّاء نظرة إكبار في معظم أنحاء العالم. لكن، كم من أذيّة جسديّة رافقت النيّة الصادقة بالاهتمام بالمرضى وبشفائهم. وأنا اخترت مهنتي هذه من وحي رغبتي المُزدوجة في التعرّف على طريقة عمل الجسم البشري، كما في المساعدة على شفاء الجسد. كانت هاتان الرغبتان النبيلتان تُحرّكانني، لكنّي كنت أُساوم عليهما على طول الطريق.

كانت دراساتي حافلة بالتحدّي، وفترة تخصّصي منهِكة للقوى. كنت أقضي الليالي الطوال، في الدرس مع الشيء القليل من النوم فقط. كما أنّ متطلّبات الحياة والموت، دفعتني أكثر فأكثر إلى أسفل، نحو المُساومة.

أنا أقصد تعاطي المُخدِّرات. في البداية، كان ذلك فقط الشيء القليل لمساعدتي على البقاء مُستيقظة، عندما لم تعد مادّة الكافيين في القهوة تعمل عملها المُنبّه كما يجب. يا للفرق الذي أحدثته فيّ! شعرتُ بأنّني أكثر نشاطًا! ذهني بدا أكثر صفاءً. أصبح بإمكاني أن أُنجز أكثر من قبل. كما أنّ تقييم أدائي تحسّن. لكن ولسوء الحظّ، لم أقف عند هذا الحدّ. أبقتني المُنشّطاتُ صاحيةً، عندما كنت بحاجة ماسّة إلى الراحة، لذا كنت أتناول مُسكّنًا من حين إلى آخر لأنعم بقسط قليل من الراحة.

ظننتُ أنّه لم يكن هناك أيّ خطر. فأنا كنت أعلم ما أفعله. على كلّ حال، كنت قد تدرّبت على وصف تلك العقاقير لأولئك الذين يحتاجون إليها، وكنت فعلاً في حاجة إليها للقيام بعملي. كنت على علم بالطبع، أنّ تناولي لهذه المواد لوقت طويل، قد يضرّ كبدي، ويُغيّر كيمياء دماغي بشكل دائم. لكني قلت في نفسي إنّ ذلك كان مجرّد حلٍّ مؤقّت. فأنا سرعان ما سأُسيطر على برنامج عملي حتى أكفّ عن استخدام هذه المُخدِّرات المُتوافرة لديّ بسهولة. كنت متأكّدة أنّ لا أحدَ كان عارفًا بالأمر، لذا أين الضرر وراء ذلك؟

ثمّ جاء اليوم الذي سقطتُ فيه من على السُلّم المُغطّى بطبقة من الجليد، خارج الفرن. تأذّى الجانب السُفلي من ظهري، حتى لم أعد أقوى على الانحناء لربط سيور حذائي! لكنّ الأطبّاء لا يأخذون إجازة مرضيّة. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك مرضى كثيرون في حالة أسوأ منّي ينتظرون على فُرُش مستشفانا. عرفت مشكلتي، لقد شددت ظهري إلى الوراء، ما تسبّب بتقلّص في العضلات جعل ظهري في الوضع الخاطئ. كان بوسعي معالجة ذلك بالراحة والحرارة، لكنّ هذا سيستلزم أيّامًا أو أسابيع. كان بإمكان قُرص صغير أن يجعل هذه العضلات نفسها تسترخي فيزول الألم. والأقراص التي خطرت على بالي، كانت موضوعة داخل خزانة مُقفلة عندي مفتاحها.

بعد حين، بات الأساس المنطقي وراء تناولي أصنافًا معيّنة من المُخدِّر، أقلّ تحديدًا. أصبحتُ الآن في حاجة إليها للتمكّن من إكمال نهاري الحافل بالضغوطات. كنت أقضي أيّامي ويغشى سبيلي ضباب مردّه إلى وقوعي تحت تأثير المُخدِّر. يا للعجب أنّني لم أسبّب مقتلَ أحد!

لا تُسيئي فهمي! كان لمعظم المُخدِّرات التي تناولتها جانب إيجابي عند إعطائها بالشكل السليم. لكنّ المشكلة تكمن في الأعراض الجانبيّة التي تسبّبها هذه المخدِّرات، كما أنّه لم يعد بالإمكان ائتماني على مفتاح الخزانة.

كنت أتمنّى أن أقول لكم إنّ ما أنقذني هو قوّة إرادتي أو خُلقي، لكن لم يكن كذلك. إنّما صلوات سلوى واستعداد سعاد لتحمّل عواقب سوء تصرّفي، هي التي كسرتني في نهاية المطاف، ومنحتني العون الذي كنت بحاجة ماسّة إليه.

لذا، ما هو رأيك يا دارين، وقد أصبحت جدّتك متّكلة على المُخدِّرات لأجل الاستمرار في الحياة. وكنت أعرف كلّ شيء عن المُخدِّرات التي هي الآن لك في المرصاد. بالطبع، المُخدِّرات هي متوافرة اليوم أكثر من قبل، ولا أحد يُصرّ على أن تُصبحي طبيبة أو ممرّضة للحصول عليها. لكن تذكّري جيّدًا أنّ عدم البدء في تناول المُخدِّرات، يبقى أسهل بكثير من الكفّ عن ذلك.

تذكّري أنّ الحكمة هي غالبًا ما تكون، فنّ التعلّم من أخطاء الآخرين.

جدّتكِ،

ليلى

الوحدة ٢ | الدرس ٨ — فَهمُ الإدمان على المخدِّرات

أعزّاءنا:

أوّل ما بدأنا "الاحتفال بفكّ العُقَد"، كنّا حقًّا في سنّ صغيرة. كانت عُقدنا كناية عن "مشاكل الشباب". كانت العُقدة الأكثر إحكامًا بالنسبة إلى ليلى اقتناعها بأنها سوف تُعاقَب على أقلّ شيء؛ فقدت بذلك الحرّيّة بأن تُخفق. أمّا العُقدة الكبرى بالنسبة إلى سعاد فكانت العار – الإحساس المُلازم لها أنه في حال فُضح أمرها وانكشف، سوف يرفضها الناس أو يشمتوا بها علنًا. وبالنسبة إلى سلوى، كانت العُقدة الأسوأ في نظرها، هي خشيتها أن تتعرّض لتركِ رفاقها لها.

كنّا جميعنا متأهّلات قبل إدراكنا كيف أنّ العديد من عُقدنا حدّد الأمور التي نخاف منها والأمور التي لا نخافها، وهذا ما كان يُظهِر مستوى نضجنا. كنّا كأولادٍ نخاف من الظلمة، لكننا لم نكن نخاف من اللعب في الشارع. لكنّ هذا الخوف انعكس عندنا كبالغين. فالشارع بات يُشكّل بالنسبة إلينا خطرًا حقيقيًّا، بينما لم نكن لنخشى قطّ الظلام بحدّ ذاته.

أنتم كبرتم بما فيه الكفاية لرؤية كيف أنّ عِقدكم تجعلكم تبدون ضعفاء أمام الأخطار الحقيقيّة فعلاً مثل المخدِّرات، والكحول، وممارسة الجنس خارج الزواج. بالطبع، الأمر معقّد أكثر من هذا، بما أنكم كثيرًا ما تتأثّرون بالعُقد عند أصدقائكم.

رؤية عُقدكم يُشكّل الخطوة الأولى في كشف تأثيرها في حياتكم. كما أنه من خلال رؤيتكم كيف أنّ عُقد الآخرين دفعتهم إلى التورّط في المُخدِّرات أو الكحول أو ممارسة الجنس خارج الزواج، قد يُوفّر عليكم الكثير من المآسي المُرتبطة بهذه التصرّفات المُلتوية.

جدّاتكم

الوحدة ٢ | الدرس ٩ الانحدار التدريجي الناجم عن تعاطي المخدِّرات

أعزائي:

لعلّ إحدى النقاط الأساسيّة على صعيد قصّتي مع المخدِّرات، حصلت لدى شروعي في معالجة مرضاي المدمنين على مخدِّرات متنوّعة. برأيي، لا يوجد أمر آخر، يجعلنا نعي ونعرف إلى أين يقودنا خطر تعاطي المخدِّرات، أكثر من رؤيتنا بأعيننا معاناة المدمنين.

ظننتُ في البداية أنّ بإمكاني تدبّر الأمر. فعلى كلّ حال، لم أُدرك كوني أصبحت مُدمنة. إلى جانب ذلك، فإنّ تجربتي الخاصّة في هذا المجال قد تعود بالفائدة على الذين كانوا في عهدتي. آه، كم كنت ساذجة في ذلك الحين!

قد يكون المدمنون من كلّ الأحجام والأشكال، كبارًا وصغارًا، أغنياء وفقراء. بعضهم سرعان ما سقط في شرك الإدمان، وبالنسبة إلى آخرين، شكّل ذلك انحدارًا بطيئًا نحو الزوال. قد يختلف المُخدِّر المفضّل من شخص إلى آخر، لكنّ شيئًا واحدًا هو ثابت – الجميع كانوا يتألّمون ويُعانون.

خلال إصغائي إلى رواياتهم، راح يظهر أمامي نمط مألوف للإدمان. برأيي، يمكنكم معرفة معظم المراحل بأنفسكم وذلك باستخدام المنطق السليم.

يتحدّث معظم المُختصّين عن ثلاث أو أربع مراحل من الإدمان، بدءًا من التعرّف بمخدِّر محدّد، يلي ذلك اختبار مخدِّرات عدّة، وأخيرًا الانشغال بمخدِّر معيّن أو بفئة من المخدِّرات. كما أنّ التركيبة النفسيّة للفرد، وبُنيته الجسديّة، وسنّه، وحتى جنسه، إلى جانب نوع المخدِّر – جميع هذه تقوم بأدوار هامّة على صعيد تقرير انتقال أحدهم عبر المراحل.

بعض الناس يُصبحون مُدمنين على إثر تعاطٍ واحد. بالمقابل، بمقدور آخرين الاستمرار في السيطرة بعض الشيء على الوضع والعيش في حياة تبدو، إلى حدّ ما طبيعيّة، لوقت طويل نسبيًّا (نسمّيهم مدمنين عمليّين). لكن، كيف عساك معرفة ما ستُصبح عليه؟ والأهمّ من ذلك، ما هي العقَد في حبْلك التي تدفعك حتى على المجازفة؟ أنا بالكامل مع المجازفة في المجال الصحيح لكن، صدّقوني لا تُعَدّ المُخدِّرات من جملة هذه المجالات.

مع محبّتي،
الجدّة ليلى

الوحدة ٢ | الدرس ١٠ منافعُ الامتناع عن تعاطي المُخدِّرات

أحبّاءنا:

يقولون إنّ لكلّ واحد قصّة، لها بدايتها، منتصفها، ونهايتها. كنّا نُخبركم قصّتنا، ولدينا المزيد لنروي لكم! لكن اليوم أردنا تحذيركم من بُطلان عدم المثابرة حتى بلوغ نهاية القصّة! فغالبًا ما لا يتكشّف القصد من القصّة حتى بلوغنا الفصل الأخير. توقّف عن القراءة قبل الأوان، فلن يتسنّى لك معرفة إن كنت تعيش مأساة أم انتصارًا. توقّف قبل الأوان فيبقى هناك شيء ما ناقصًا.

قد تتخلّل القصّة ظروفٌ أو أحداثٌ مُعقّدة. فالبطل قد يَتعرّض باستمرار للهزيمة والتعيير وذلك حتى الفصل الأخير، ومع هذا يعود وينتصر ويحظى بالفتاة. لُبّ الأمر هو أنّ القارئ لا يعلم من سياق القصّة إن كانت ستنتهي الأمور بشكل أم بآخر. لو تسنّى له معرفة ذلك، لَما عاد يهتمّ كثيرًا، على الأرجح، أن يكملَ قراءته للقصّة. أنت لا تُريده أن يعيش المُغامرة متأكّدًا مُسبقًا من النتيجة. للصّراع نكهة خاصّة، حتى يستحقّ المعاناة في سبيله.

يا كريم، أنت لم يتسنَّ لك قطّ أن تتعرّف بخالك سالم. فهو مات قُبيل ولادتك أنت. في ظنّي أنّه أحبّ الكتب أكثر من الناس. كان بوسعه المكوث داخل شقّتنا طيلة فترة نهاية الأسبوع، لا يفعل شيئًا سوى التهام الرواية تلوَ الأخرى. كانت سلوى وليلى تُحبّان جعله يحمرّ خجلاً. كانتا تُحاولان استمالته من خلال انتباههما إليه، لكي تعودا وتتظاهرا بالاستياء عند إبدائه أيّ شكل من الاهتمام بهما. بهذه الطريقة، كانتا تلهوان مع الفتيان. كان أكبر سنًّا منّا بعام واحد، لكنه كان متخلّفًا عنّا بسنوات لجهة مهاراته الاجتماعيّة. كانت تحمرّ وجنتاه بسهولة. لم تكن أيّ واحدة منّا تعلم كم كان فعلاً مرهفًا وحسّاسًا.

من الصعوبة بمكان تقرير ما هي تلك الأمور والأحداث التي اجتمعت معًا والتي أدّت في نهاية المطاف إلى إقدامه على الانتحار. ففي عائلتنا، لم تكن لتكشف عن مشاعرك. لقد جرى تعليمنا ضرورة عدم الوثوق بأيٍّ كان. فأنت لا تعلم ما الذي قد يحصل في حال اكتشف الأشخاص الخطأ، أمرًا ما. فخوف "ستالين" وضبّاطه كان دائمًا يحوم في الأفق خلال تلك الأيام. في ظنّي أنه خاف أو ربّما فقط تعبَ في قرارة نفسه بعد أن جرى تعيينه وإرساله إلى "كالينينغراد". كان الجيش يُعدّ اختبارًا وحشيًّا في نظر بعضهم. برأيي، كان يشكّل ضغطًا كبيرًا عليه. لم نكتشف أبدًا من أين حصل على أقراص الدواء. لم يكن من السهل اقتناء تلك الأصناف من المُخدِّرات كما هي الحال في أيّامنا. لا أعلم حتّى إن كان قد قصد أن يقتل نفسه أو فقط اكتفى بأخذ إجازة من الألم في قلبه. لا أدري من أيّ نوع من الرجال كان سيُصبح. تلك هي المسألة.... لا أدري. وأظنّ أنّه لن يتسنّى لي أبدًا معرفة ذلك.

جدّتك،

سعاد

الوحدة ٣

الوحدة ٣| الدرس ١١ ماذا تعرف عن الكحول؟

عزيزي كريم:

ثمّة قصّة قديمة عن فيل كان يقطن مع عائلة. احتلّ أكبر غرفة في بيتهم. ليس من السهل تجاهل فيل ضخم. لكن هذا بالتمام ما فعله كلّ واحد من أفراد العائلة. لم يكونوا ليذكروه أمام بعضهم بعضًا، إلّا أنهم رتّبوا حياتهم ونظّموها على الرغم من وجود الفيل.

عمّت رائحة الفيل أثاث البيت وملابس العائلة، وحتى طعامهم بات يحمل شيئًا من رائحة النتانة. ولو دُعيت إلى بيتهم لتناول طعام العشاء (الأمر الذي لن يحدث أبدًا)، كان سينتابك شيء من الغثيان في معدتك من جرّاء رائحة العفن الكريهة التي كانت تفوح من البيت. تناولت العائلة كلّ وجبة طعام من دون التلفّظ بكلمة واحدة عن ضيفهم غير المُرحّب به. كان الفيل يحشر نفسه حول مائدة الطعام متى شعر بالجوع – وقد كان دائمًا يشعر بالجوع. كان أفراد العائلة يتدافعون ويتذمّرون بسبب ضيق المكان حول الطاولة. كذلك كان كلّ واحد يلوم الآخرين بسبب عدم توافر ما يكفي من الطعام. لكن لم يكن أحد ليذكر الفيل الذي استولى على حياتهم.

لن أُزعجك بالتفاصيل المتعلّقة بأعمال التنظيف وراء الفيل، لكن بوسعك تخيّل الفوضى التي تسبّب بها الفيل داخل البيت، وعلى صعيد حياة أفراد العائلة. نادرًا ما وُجدت لحظة واحدة من أيّ يوم، لم يكن خلالها الفيل يرمي بثقله على قلوبهم وأذهانهم. كان الفيل غير مدعوّ وغير مرغوب فيه. وعلى الرّغم من هذا كلّه، لم يكونوا ليتناولوا مشكلة الفيل معًا أو مع الفيل نفسه. لم يكونوا يعرفون كيف.

تبدو هذه القصّة كأنّها من روايات الأطفال المضحكة، أليس كذلك؟ سخافتها تبدو فُكاهيّة. آه، كم كنت أتمنّى لو صحّ هذا الأمر! لكنه ليس كذلك. أنا عايشتُ في بيتي "فيلاً" لوقت طويل في الظروف السائدة في هذه القصّة تقريبًا. كان ذلك

فيل الإدمان على الكحول.

كان جدّك قد شرع في تناول الكحول قبل أن نتزوّج. كنت على علم بأنه يشرب الكحول، لكن الكلّ كان يشرب. وبالعودة إلى تلك الأيام، كان شرب الكحول يُعدّ من علامات الرجولة. يا لها من كذبة مدمِّرة. إنها لأسطورة أن يظنّ أحدهم أنّ له ملء الحقّ والحريّة بأن يشرب حتى الثُّمالة، وأنّ الأمر يعنيه وحده من دون سواه. وعلى غرار الفيل داخل الغرفة، نُدفع نحن إلى الظنّ أنه من المُفترض فينا أن نكتفي بالتغاضي عن الأمر وتجاهله، مع سعينا لتحمّله والتكيّف معه، مُتظاهرين بأنه غير موجود. كما أننا نأمل بأنّ هذا الأمر سيزول من تلقاء نفسه، ملتزمين جانب الصمت حياله في حال لم يصحّ. أنا أعرف ذلك بما أني حاولت هذه الأمور جميعها، وبعضها كان على مدى عشرات السنين.

لقد آن الأوان لنتحدّث عن الفيل. الفرصة سانحة لمواجهة المشكلة والتخطيط لإخراجه من البيت، ولعلّ ما هو أفضل، السهر على عدم السماح له بالدخول منذ البداية.

جدّتك
سعاد

الوحدة ٣| الدرس ١٢ تأثيرات الكحول على الجسم

من الجدّات: دِرجٌ يحتوي على هذه الكلمات:

'بسبب الافتقار إلى مسمار، فُقدت الحدوة
بسبب الافتقار إلى حدوة، فُقد الحصان،
بسبب الافتقار إلى الحصان، فُقد الفارس،
بسبب الافتقار إلى الفارس، فُقد النصر،
بسبب الافتقار إلى النصر، فُقد البلد-
الكلّ بسبب الافتقار إلى مسمار.

الوحدة ٣| الدرس ١٣ نتائج الإفراط في تناول الكحول

أعزائي،

كان باسم زوجًا صالحًا. طبعًا كان كذلك. لا تَدعوا أحدًا يقول ما هو خلاف ذلك. كان هو خياري الأ وّل، الشخص الوحيد الذي كنت آمل أن يختارني أيضًا عندما رأيته يرقص في احتفال "يوم أيار/مايو" منذ عهد بعيد. حصل ذلك بعد "الحرب الوطنيّة العظمى". كانت أوسمة الشرف تزيّن قميصه، عاكسةً نور الشمس، كالألعاب الناريّة، خلال رقصه.

كان قويًّا وجميلاً، ولدى نظري إليه ازدادت ضربات قلبي داخل صدري. لم يكن إعجاب الناس به يقتصر على النساء، فالجميع هتفوا وصفّقوا وهو يرقص، وكلّ الرجال كانوا يرفعون كؤوسًا كبيرة من الفودكا إلى جانب كأسه. استطاع أن يُباريهم من دون أن يبدو عليه أيّ أثر للضعف، وذلك خلافًا للآخرين الذين راحوا يتمايلون ويترنّحون تحت تأثير الكحول.

رآني باسم حبيبي. كانت عيناه كبيرتين وسوداوين، أشبه بعاصفة تهبّ من البحر، وتلمعان متى ابتسم أو ضحك. رآني في ذلك اليوم وابتسم لي، وبات قلبي ملكه. ابتسمتُ بدوري له.

كانت أسناني جميلة جدًّا، في ذلك الزمن، كما كان الناس يقولون لي. كانت أسناني جميلة ببياضها، ومستقيمة جدًّا، وعرفت أنّي فاتنة جدًّا عندما أبتسم. فاتنة بما فيه الكفاية لجعل الرجال يُلاحظون. لاحظني باسم!

ما إن تزوّجنا حتى بات بإمكاننا الانتقال إلى شقّتنا الخاصة. كانت شقّة جيّدة، وتختلف عن معظم شقق عائلات العُمّال، وكانت كلّها لنا. كان النور يشعّ من النافذة الجنوبيّة، والتي كنت أُبقي عليها نظيفة على الرغم من الدخان الأسود

في الهواء. كنت كلّ يوم أنزع هذه الطبقة السوداء المُتراكمة عليها من مداخن المعامل.

كلّ صباح، كان باسم يُغادر البيت إلى مكان عمله باكرًا؛ قبل شروق الشمس في الشتاء والربيع. أنا أعرف متى حلّ فصل الربيع، ذلك لأنّ السماء كانت تشعّ من ناحية الشرق باللون البرتقالي من خلال الدخان. ثمّ يأوي إلى البيت بعد حلول الظلام، فنتناول طعام العشاء معًا.

كان باسم يقوم بعمل مضنٍ. كان مُتعبًا لدى عودته إلى البيت. كانت الطبقة السوداء التي أنزعها عن النافذة هي نفسها التي تُغطّي وجهه ويديه. في البداية، كان يغسل وجهه ويديه قبل العشاء. لكن لاحقًا، كان مُتعبًا جدًّا، فيجلس إلى الطاولة ويشرب الفودكا، وبَشَرته شاحبة تحت الطبقة السوداء، وكأنّ أحدًا ما طلاه لكي يتلاءم لونه مع لون الجدران والنافذة والسماء.

في البداية، كان الليتر الواحد من الفودكا يكفي لثلاثة أيام أو أربعة. ثمّ أصبح يحتاج إلى ليتر لكلّ يوم، إذ يشرب نصفه قبل العشاء ونصفه بعد العشاء. كان العمل مُضنيًا جدًّا. في البداية كانت تدور بيننا أحاديث شيّقة في المساء. وكنت أتشوّق إليها كلّ النهار. لكنه سرعان ما صار يكتفي بشرب الفودكا. غالبًا ما كنّا نتشاجر ثمّ يرتمي على فراشه. كان بالجهد يبتسم، وعيناه سوداوان كالدخان....

ثمّ جاءت تلك العشيّة عندما ضربني باسم. كانت قبضة يده أشبه بالصخر، وذراعه المفتولة حرّكتها بقوّة وسرعة كقضبان الفولاذ على الآلات في معمله. هذه الضربة أعمتني للحظة، ولم أعِ في بادئ الأمر ما الذي حصل. ولا حتى أدركت أني كنت مطروحة أرضًا، إلى أن أصبح باسم فوقي وعيناه مغرورقتان بالدموع، معربًا عن أسفه الشديد وواعدًا بعدم حصول هذا على الإطلاق في ما بعد. كان مندهشًا مثلي، على ما يبدو. كانت الكدمة على خدّي تؤلمني، لكن ليس على قدر الألم في قلبي.

"أنا آسف،" قالها ورائحة الكحول النتنة تنبعث من فمه. "لكن عليكِ ألاّ تزعجيني بكلّ هذه الأسئلة والمشاكل. فأنا في حاجة إلى راحة عندما آتي إلى البيت. لا أستطيع تحمّل كلّ المشاكل."

سألته ما يريد تناوله للعشاء....

مرّ الوقت، وكان المساء يجيء، وهو لم يكفّ عن ضربي. ضربني بقوّة مرارًا وتكرارًا، وشعرت بأزمة ساحقة مع تحطّم أسناني في الجهة اليُسرى من فمي. وهكذا فقدت تدريجيًّا الجزء مني الذي كان يفهم ماذا يحصل، والنور المحيط بي أقفل على نفق، نفق قاتم وأسود كعينيه البيضاوين والسوداوين.... مرّت سنون عديدة، بدت في نظري أشبه بكابوس واحد طويل.

ثمّ ذات يوم، كنت أراقب عند خروج الطبيب من الغرفة وهو ينقّل نظره بين الواحد والآخر. "أنا آسف،" قال. "إنها حالة من التليّف الكبدي. لا يسعنا عمل أيّ شيء."

قبض باسم على يدي. كان بوسعي الشعور بأنه يرتجف....

كان مُستلقيًا على سريره داخل المستشفى، وجلده الأصفر متضخّم كالثمرة الناضجة جدًّا. حتى عيناه كانتا صفراوين ما عدا الحدقة في كلٍّ منهما، والتي عوضًا عن السواد العاصف بلمعانه الذي كنت قد عهدته جيّدًا في أيام صبانا، أمست الآن شاحبة وفارغة، وأشبه بحُجرتين دائريتين محفورتين في تُربة سامّة. كان نَفَسه يشقّ طريقه بصعوبة شهيقًا وزفيرًا بشكلٍ غير منتظم.

"كنتُ زوجًا صالحًا، أليس كذلك؟" خرج صوته بشكل أجشّ وحادّ بشكل غريب، كالصوت الذي تُحدثه الأظافر على اللوح.

"أجل، يا باسم، بالطبع،" وأنا أبتسم. رأيت في المرآة انعكاسًا لوجهي. فابتسامتي الكاملة وأسناني المُستقيمة والبيضاء، قد جرى منذ وقت بعيد الاستعاضة عنها بقطع من الفضّة.

أظنّ أنه رأى التعبير على وجهي لأنه بدأ يجهش ببكاء مُرّ. كانت تلك المرّة الوحيدة التي فيها رأيته يبكي، على الأقل بالنسبة إليّ.

جدّتكم

سعاد

الوحدة ٣ | الدرس ١٤ ضعفك حيال تناول الكحول

أعزّاءنا:

كان أحد معلّمينا قد اعتاد على القول: "ما من جواب صحيح لسؤال خطأ." كان على حقّ؛ بما أنّ العثور على الأسئلة الصحيحة قد يُساعدكم كثيرًا على إيجاد الحقّ. نأمل أن يكون السؤالان داخل الوسادة قد أرشداكم إلى الاتّجاه الصحيح. طرحُ الأسئلة لا يخلو دائمًا من المجازفة؛ فهي تسبّب لكم الانزعاج. ربّما هنا يكمن السبب لماذا لا يُكلّف العديد من الناس أنفسهم عناء طرح الأسئلة الصعبة المختصّة بالحياة – يكتفون بترك الأمور تحصل لهم وبنتائج متفاوتة.

أنت مصنوع لكي تطلب الراحة وتشعر بالحاجة إليها. آه، كم كنا نتمنّى لو تصرّفنا مع أهلكم بشكل أفضل بالنسبة لهذا الأمر! لو كان بوسعنا فقط أن نتعلّم في وقت مبكر تقدير معاناتهم، لكي نُعزّيهم، ونبثّ فيهم الرجاء، لعلّهم كانوا بذلك قد تعلّموا فعل ذلك معكم. لكن من الصعب جدًّا أن تعطي ما لا تملكه، لكنّ الراحة الحقيقيّة كان يجب أن تظهر منذ وقت طويل في حياتنا.

قد تصبح الحياة مزعجة جدًّا، والمكان الذي تذهب إليه لتجد الراحة، يُشكّل واحدًا من أهمّ الخيارات التي تتّخذها على الإطلاق. أحسِن الاختيار، فستكون واحدًا من أولئك الناس الذين بوسعهم العيش من كلّ قلوبهم بما أنهم لا يخشون أن يلحق بهم أيّ أذى. هم يعرفون أنّ الراحة حقيقيّة ومتوافرة. أمّا عندما يكون اختيارك رديئًا فستنتظرك حياة مختلفة جدًّا.

جداتكم

الوحدة ٣ | الدرس ١٥ منافع الامتناع عن تناول الكحول

لا رسالة للجدّات

الوحدة ٤

الوحدة ٤ | الدرس ١٦ ماذا تطلب في شريك الحياة؟

أعزاء نا:

كلّنا تعلّمنا أمورًا من آبائنا – البعض جيّد والبعض الآخر سيّئ. من بيننا نحن الثلاثة، كنت أنا بكلّ تأكيد قد تباركت بألطف أب على الإطلاق. لم يكن ليمنعني أبدًا من السماح لي بالاقتراب منه خلال عمله على قفل معيّن أو اقتطاع مفتاح آخر، وهو يجلخ أطرافه الناتئة. كان ينتبه إلى التفاصيل مطوّرًا عمله على قطع معدنيّة صغيرة ومُحسّنًا فيها.

ذات ليلة كان متّكئًا بهدوء داخل كرسيّه الكبير، يتنصّت بعض الشيء إلى أختي الكبرى وهي تتحدّث مع ابنة خالتها عن الصبيان. كان، ولا شكّ، لحديثهما طابع جنسيّ، لكنهما كانا يدوران حول المسألة. كنت فقط في الخامسة أو السادسة من عمري في ذلك الحين، وما كان بإمكاني متابعة ما يتضمّنه حوارهما من أمور غامضة. لم يكن عندي أيّ أساس لفهم ذلك. ومع هذا بحكم فضوليّتي، خزّن ذهني في سنّ الخامسة كلماتهما إلى جانب أسئلتي.

في اليوم التالي، دعاني أبي إلى اصطحابه في رحلة بالقطار إلى مكان عمله. جعل حقيبة عدّته مع أقفاله على الرفّ الأمامي من عربتنا في القطار. وفيما راح القطار يشقّ سبيله عبر المدينة، بدأت أطرح أسئلتي التي كانت لا تزال تُزعجني من الليلة الفائتة.

أصغى إلى كلّ كلمة – تلك الكلمات التي لم تكن تحمل سوى التشويش والغموض بالنسبة إليّ. كان بإمكانها أن تُصبح حديثًا حول حقائق الحياة، عن الطيور والنحل – محاضرة مزعجة على مستوى المرحلة الابتدائيّة – عن طبيعة العلاقة الجنسيّة الحميمة بين الرجل والمرأة. لكن لم يحصل ذلك.

لم يتلفّظ بأيّ كلمة، لكنّي عرفت من هزّة رأسه أنّه يسمعني. كما أنّه للمرّة الأولى في حياتي، لم يُقدّم لي جوابًا سريعًا. بدا صمته في منتهى الغرابة. سكّر عينيه، وظننت أنّي أرى شفتيه تتحرّكان، وكأنه كان يُصلّي أو ما شابه ذلك.

*دخل القطار محطّتنا، وبينما رحنا نجمع أغراضنا للمغادرة، قال: "يا سلوى، هلّا جلبت لي حقيبة عدّتي؟" نظرت إلى فوق إلى ذلك الرفّ العالي والصندوق الضخم وقلت: "بابا، لا أستطيع. فإنه أثقل من أن أحمله. ولا أظنّ أنّ بمقدوري حتى الوصول إليه. "أنتِ على حقّ فهو ثقيل جدًّا عليك. وفي حال حاولتِ ذلك، لن تجني من ذلك سوى الأذى. وأنا لن أطلب منك أبدًا القيام بأمر كهذا. الإجابات عن الأسئلة التي طرحتِها هي أشبه بحقيبة العدّة – إنها أثقل من أن تحمليها الآن. سرعان ما سيأتي الوقت الذي ستتحمّلين فيه هذه الإجابات. لكنّ محبّتي الكثيرة لكِ تمنعني من أن أُثقّل كاهلك بها الآن. هلّا وثقتِ بي لأقدّم لك الإجابات متى حان الوقت المناسب؟"**

إنها حكمة كلماته التي نعرضها عليكم اليوم. ثمّة وقت لكلّ شيء. وقت للكلام ووقت لملازمة الصمت؛ وقت للتذوّق ووقت للامتناع عن ذلك؛ وقت للتساؤل ووقت للقبول؛ وقت للفتح ووقت للإبقاء على الأمور مغلقة.

مفاتيح الحياة تنزع القفل عن العديد من الأشياء. فلا تكونوا على عجلة أكثر من اللزوم لفتحها.

بعضها أثقل من قدرتكم على حملها في مرحلتكم الراهنة من الحياة. قد تُحطّمكم في حال فتحتموها قبل الأوان – نعلم أننا نجمع أمورًا لا حاجة لنا بها وقبل أن نكون مستعدّين لها – وذلك لأسفنا الشديد.

جدّتك

سلوى*

*هذه القصّة هي اقتباس لرواية حقيقيّة حصلت بين كوري تِن بوم وأبيها قبل عدّة سنوات. بإمكانكم أن تجدوها في العديد من كتبها.

الوحدة ٤ | الدرس ١٧ العواقب الجسديّة الناجمة عن ممارسة الجنس قبل الزواج

لا رسالة للجدّات

الوحدة ٤ | الدرس ١٨ العواقب العاطفيّة الناجمة عن ممارسة الجنس قبل الزواج

أعزّاءنا:

لم تلتقوا أكرم قطّ. كان أحد الفتيان الذين كنّا معهم في المدرسة. كانت الحياة سهلة عليه. كان رياضيًّا ويحظى بشعبيّة عند البنات. كان دائمًا محور كلّ ما يجري. كان يُحاول باستمرار اختلاس قُبلة من واحدة منّا، وكنّا في البداية نستمتع باهتمامه فينا. لكنّه كان يطلب دائمًا أكثر من مجرّد قُبلة. تكوّنت علاقة جدّيّة جدًّا بين سلوى وأكرم خلال سنتهما الأخيرة في المدرسة – لكنّنا سنترك هذه القصّة لوقت لاحق.

بعد سنوات قليلة، رحنا نتبادل الآراء حول أكرم متسائلين عمّا حلّ به. فقدنا كلّ أثر له بعد التحاقه بالسلاح البحريّ. كان قد صرّح بأنّه ينوي رؤية العالم، وصدّقنا أنّ هذا كان كلّ ما فعله.

يا للأمر المُذهل، عندما التقته ليلى بعد سنوات عدّة على متن طائرة مسافرة من القاهرة إلى عمّان. ومَن كان جالسًا على مقربة منها سوى أكرم!

راح أكرم وليلى يتحدّثان عن الماضي، ثمّ ما لبث الحوار أن اتّخذ منحىً غير متوقَّع عندما سألت ليلى أكرم إن كان قد عثر على "المرأة الكاملة" التي كان يبحث عنها. ثمّ في هذا الجوّ المليء بصوت محرّكات الطائرة، راح أكرم يُعرب عن أسفه على علاقاته الماضية.

فكّرت ليلى في قرارة نفسها: "أتساءل إن كان هذا ما يشعر به الكاهن لدى إصغائه في كنيسته إلى اعترافات أعضائها." اخترقت كلمات أكرم ضجّة الطائرة. كان يتكلّم مُطأطئ الرأس دون أن ينظر إليّ، وهو يتفرّس في مكان ما بعيد عن الطائرة....

كنت أعرفُ بالتمام ما صفات الزوجة التي كنت أريد. أن تكون جذّابة بكلّ تأكيد – لا شكّ في ذلك. سمراء أو شقراء أو شعرها أحمر ... كلّ هذا غير مهمّ، لكن أن تكون فقط جميلة، شكلها حسن، وجذّابة جنسيًّا. كان عليها أن تكون أيضًا طيّبة ولطيفة، صالحة مع الأولاد، صديقة جيّدة فعلاً، وذكيّة – لكن غير ذكيّة أكثر من اللزوم." ابتسم ثمّ نظر إلى عينيّ ليلى. "ربّما أيضًا لديها أهل قريبين إلى القلب. لكنّ كلّ تلك الأمور الأخرى بالإمكان التفاوض حولها في المراحل الأولى. كان الجانب الجسديّ هو الذي يجذبني – هو الذي يجذبني حقًّا. كنتِ محظوظة من خلال عدم تورّطك معي."

"كنتُ أفكّر: 'هذه الفتاة هي لي،' لكن بعد ممارستي الجنس معها، عرفت أنها ليست هي التي أبحث عنها. آه، لا تُسيئي فهمي. كان الأمر مُسليًا جدًا، على الأقلّ إلى حين قطعي العلاقة بها. بعد فترة، أصبح هذا النوع من العلاقات أقصر فأقصر. كنت أنتقي امرأة لمجرّد قضاء الليلة معها. لكنّ هذا برهن أنهنّ لم يكنّ أهلاً للزواج. كانت تلك النساء من النوع "المستعمَل" وقاسيات بعض الشيء. تفهمين ما أقصد؟ أين هنّ كلّ الفتيات الناعمات، واللطيفات، والطاهرات، والرائعات اللواتي لم يشُبْهنّ أيّ شكل من التلوّث، مثل الذين كنت أخرج معهنّ في أيام القِدَم؟

"قلت لنفسي إنّي كنت أعيش حلم كلّ شاب. كان عليّ فقط مواصلة بحثي عن الفتاة المناسبة لي – لكن لا معنى من حرمان نفسي خلال عمليّة البحث هذه، أليس كذلك؟"

راح أكرم يروي عن الأنواع المتنوّعة من النساء اللواتي عرفهنّ: نساء متزوّجات، نساء مُطلّقات، نساء عندهنّ أولاد، أولئك اللواتي سرقنه ثمّ توارينَ عن الأنظار. ثمّ تابع: النساء اللواتي سكرنَ، والمرأة التي ظلّت تقول له «لا» لكنّه كان متأكّدًا من أنها لم تكن تعنيها.

أصغت ليلى إليه بصمت.

«بات من الأصعب إيجاد الفتاة المناسبة، أنتِ تعرفين ذلك،» قال أكرم مستأنفًا حديثه، «كان الأمر يبدو سهلاً وأنا في العشرين من عمري. هل تعلمين أنّي كنت متزوّجًا على مدى سنوات عديدة؟ أجل، بل حتّى رُزقت بطفلة – لكنّي لم أعد أراها كثيرًا هذه الأيام.

«مظهري جيّد جدًا نظرًا لعمري، أليس كذلك؟ أراهن أنّي أبدو في نظر الناس أصغر سنًّا ممّا أنا عليه فعلًيا. في الواقع، أنا لن أعود أصغر عمرًا بعد اليوم. يا ليتني كنت متزوّجًا وعندي عائلة أرجع إليها. هذا ليس عدلاً، فأنا كما تعلمين شخص وسيم ويمكن أن أحظى بغنيمة جيّدة، ألا تظنّين ذلك؟»

«أخبريني يا ليلى! ماذا تنوين فعله بعد أن تحطّ الطائرة؟ هلّا شاركتني كأسًا من الكحول؟ إنّي بحاجة ماسّة إلى شرب كأس – ألا تريدين ذلك؟»

كلّ ما أرادت ليلى القيام به هو الخروج من الطائرة ووضع حدّ لهذا الحوار. شعرَت – ما هي الصفة الملائمة لهذا الحديث – بالبشاعة والوساخة. أجل، كان كذلك. كما أنّها شعرت بأنّها محظوظة جدًا في تجنّبها الإغراءات الصادرة عن أكرم عندما كان شابًا صغيرًا. ولحسن الحظّ، أخذت الطائرة في الهبوط.

بعد أن وقف الجميع للخروج من الطائرة، التفت أكرم إلى ليلى وخاطبها بالقول: «أخبرتكِ عن حياتي. أخبريني الآن عن حياتك أنتِ.»

«لا يوجد لديّ الشيء الكثير لأنقله إليك،» قالت له. «أنا متزوّجة وعندي عائلة. جاهدنا مثل كلّ الناس، وعملنا بجدّ ومثابرة. لكنّ أحلام الصبا تتحقّق شيئًا فشيئًا في حياتنا. أشعر بالاكتفاء في حياتي أكثر بكثير ممّا ظننت في أيّ وقت من الأوقات.»

سار أكرم وليلى معًا عبر الباب الذي يُقلّهما إلى الخارج. وإذ بفتىً مفعم بالحيويّة، في نحو السابعة من عمره، وفتاة صغيرة جميلة، شبيهة بليلى، يركضان لمعانقة والدتهما. ثمّ ما لبث الأب أن انضمّ إليهم. عندئذٍ، عرّفته ليلى بأكرم. «أريدك أن تُقابل أروع رجل في الكون – زوجي بسّام.» سلّم الواحد على الآخر باليد، ثمّ دار بسّام ليُعانق ليلى ويرحل برفقة عائلته.

بعد أن سمعنا قصّة ليلى، نرى من أنّ أكرم لم يتغيّر فعلاً عمّا كان عليه في المدرسة. لم يتغيّر أبدًا، لكنّنا نشكر الله أننا نحن تغيّرنا!

جدّاتكم

الوحدة ٤ | الدرس ١٩ حقائق وإشاعات حول الجنس

لا رسالة للجدّات

الوحدة ٤ | الدرس ٢٠ كيفيّة الاستعداد للنجاح في الزواج

كان داخل المغلّف بطاقة من صنع يدوي ومكتوب عليها بخطّ كبير:
بعض الأمور تكون الأفضل في حال تركِها غير مفتوحة – على الأقلّ الآن.
إن كان بإمكانكم مقاومة فتح هذه الرزمة،
بوسعكم استبدالها بما هو ممتع ومسلٍّ،
ومثير أكثر. الخيار لكم.

أعزّاءنا:

كم هو من السهل أن تخربوا حياتكم حتى يفوتكم في نهاية المطاف بلوغ الأمر الذي حاولتم جاهدين الفوز به! هل تتذكّرون الأسطورة الإغريقيّة المتعلّقة بصندوق «باندورا»؟ تروي القصّة أنّ الآلهة أعطتها صندوقًا لغزًا، كان عليها عدم فتحه. لكنّ فضوليّتها تتغلّب عليها وهكذا تُقرّر إلقاء نظرة خاطفة على محتواه. وما إن نزعت الختم عن الصندوق، حتى خرجت منه كلّ الويلات لبلاء العالم. حاولت جاهدةً إعادة أمر واحد من الأشياء القذرة إلى داخل الصندوق، لكنها لم تفلح. اليأس، الكراهيّة، الشعور بالذنب، التأسّف، الانتقام، العار، والخداع – شكّل ذلك غيضًا من فيض للضيقات التي حلّت بالعالم.

كان ثقل ما فعلته «باندورا» هائلًا جدًّا عليها، لكنّها تعود وترى أمرًا أخيرًا داخل الصندوق – الأمل. ففي خضمّ إطلاق العنان لهذا الشرّ كله، لا يزال هناك فضيلة واحدة كفيلة بإنقاذ الموقف.

يوجد في داخلكم العديد من الآمال والأحلام – اختبارات ذات معنىً، في انتظار أن تتذوّقوها طيلة زمان حياتكم. لكنّ الحياة قد تُخبّئ الشيء الكثير من الأمور المؤلمة: خسارة، تأسّف، عدم إنصاف، وظلم هي مجرّد ظلال للعُقَد العاطفيّة التي قد تخرب حياتكم متى حاولتم أن تنموا بشكل أسرع من اللازم، أو تفتحوا اللغز الرائع الخاصّ بإمكاناتكم الجنسيّة قبل الأوان.

آه نعم، والفضوليّة هي إحدى الأمور التي قد تخدعكم إذ تدفعكم إلى فتح الصندوق قبل الأوان. فالضجر، والحقد، واليأس، والحماقة، والسذاجة، تُشكّل بعض الأصوات الداخليّة التي تسعى جاهدةً لحملكم على تجاهل صوت ذواتكم الفُضلى أو الأصوات الآتية، على ممرّ سنيّ حياتكم والصادرة عن أناس يُحبّونكم ولا يتمنّون إلّا ما هو الأفضل لكم.

وباقتباسنا كلام سلوى، إنّ عدوّ نفوسكم، يبقى يُشير دائمًا إلى ذلك الأمر غير المتوافر لديكم، جاعلًا منه المعيار لسعادتكم أو شبعكم. «الثمرة المُحرّمة،» عبارة تنطبق جيّدًا خارج إطار جنّة عدن.

جدّاتكم

الوحدة ٥

الوحدة ٥ | الدرس ٢١ الضغط الذي يدفعنا إلى المُساومة

أعزاءنا:

على افتراض أنكم كنتم تسيرون على شاطئ جزيرة مهجورة وصدف أن عثرتم على هذه الساعة. ماذا بوسعكم استخلاصه من اكتشافكم هذا؟

مهما كانت الاحتمالات التي ذكرتموها، أنا متأكّدة أنكم لم تقولوا: "يا للدهشة! فالرمال والرياح والماء والأمواج امتزجت معًا بشكل عشوائي لتكوين هذه الساعة!" هذا الكلام هراء، ولا معنىً له! من الواضح أنّ شخصًا ما صنع هذه الساعة. بكلام آخر، تستلزم الساعة وجود ساعاتي لصنعها.

كانت جدّتكم سلوى تهوى استخدام هذه الحجّة على وجود الله. "لا يُمكنكم الحصول على أيّ شيء من لا شيء" كانت تقول عندما كان يفوتنا قبول حجّتها بسرعة. بالطبع، اكتشاف السبب وراء الساعة هو أسهل مثلاً، من إيجاد السبب وراء إحساس ما أو تصرّف يبدو في غير محلّه. غالبًا ما يتعلّق الأمر بالدافع، والدوافع هي أمور معقّدة! إن أردتم أن تفهموا لماذا يفعل الناس ما يفعلونه، عليكم أن تفتّشوا عن الأسباب – فغالبًا ما يكون غير المنظور، السبب وراء ما هو منظور.

جدّاتكم

الوحدة ٥| الدرس ٢٢ أخطار الانجذاب الشديد

أعزاءنا:

قليلة هي الرسائل التي تكون كتابتها أصعب من الرسالة التالية. آه، كم كنت أتمنّى لو اخترت سبيلاً آخر لتعلّم هذا الدرس! ربّما ستوفّر عليكم قصّتي هذه، الألم والأسف اللذين سبّبهما لي، ولِمَن يهمّني أمرهم، هذا «الدرس في المفردات» بالتحديد.

كان سامي أجمل فتىً في المدرسة – وكان لي.

نزل الثلج باكرًا في تلك السنة، وأنا لا زلت أتذكّر أصوات الإوزّ خلال طيرانها نحو الجنوب. ولو كانت هذه الطيور تُرسل تحذيرًا من خلال صراخها، لما كنت أبالي به.

خلال وجودي مع سامي، كان قلبي دافئًا كالصيف. لكن، كان عليّ أن أكون حذرة. فأبي لم يكن ليُوافق على اقترابي من سامي كما كان قد بدأ بالحصول. كان أبي وأمي يُحبّان سمير، لا سامي. هذا أيضًا كان يجب أن يكون بمثابة تحذير لي.

كان سمير يأتي إلى منزل أهلي مرّتين في الأسبوع لمساعدتي في الرياضيّات. رافقني سمير في المدرسة منذ صفّ الحضانة. كان دائمًا صبورًا معي، حتى عندما كنت أشعر بخيبة الأمل من الرياضيّات، وأغضب عليه من جرّاء ذلك.

كان سامي أكثر تهوّرًا وطيشًا. كان مستعدًّا لأيّ شيء - ما عدا الانتظار. لم يكن يُحبّ حتى انتظاري. فمع حلول فصل الخريف، بدأ يعمل جاهدًا لدفعي إلى إقامة علاقة جنسيّة معه.

«أنتِ تحبّينني، أليس كذلك؟» سأل.

«طبعًا، أحبّك.»

«عليكِ أن تُبيّني محبّتك هذه.»

«لكني لست جاهزة بعد.»

«متى ستصبحين جاهزة؟»

«لا أعلم.»

«تنفّس سامي عميقًا ثمّ ضرب رِجله أرضًا. لا أقدر ولا أريد الانتظار إلى ما لا نهاية، أنتِ تعلمين ذلك.»

كنت أعلم ذلك. شيء واحد لم يكن بمقدور سامي القيام به، وهو الانتظار إلى ما لا نهاية.

على قدر ما قاومت، كان ينفذ صبر سامي أكثر فأكثر، وكنت أخشى فعلًا أن أخسره. مع مَن أستطيع التحدّث عن هذا الأمر؟ لم يكن لديّ أحد بوسعي التكلّم معه عن مسألة شخصيّة كهذه. شعرت بأنّي وحدي.

ضغطَ عليّ سامي مجدّدًا، وهذه المرّة قطعتُ له وعدًا. سأكون جاهزة خلال عطلة الخريف.

دنا الأوان، وشرعت أملأ الأيام بأحلام المراهقة. سامي سيطلب منّي في نهاية المطاف أن أتزوّجه، وما على أبي سوى الرضوخ للأمر الذي لا مفرّ منه.

ومع حلول ساعات الليل، كنت متوتّرة، لكن عازمة. فكلّ أحلامي ستتحقّق بعد خروجي من هذا الباب.

لم يحصل شيء ممّا كنت أتوقّعه. فبعد الوقت الذي قضيناه معًا، لم أشعر بشيء من السلام الذي ظننت أنه سيكون من نصيبي. لكن انتابني شعور بالذنب، وكأني شاركت في عمليّة سرقة شيء ثمين عندي، سرقة ذهبت أنا أيضًا ضحيّتها.

بدا على سامي أنّه تغيّر أيضًا. ظهر عليه خلال الأسبوع أنّه يتجنّبني. أخيرًا، التقيت به في الممشى.

«آه، هذه أنتِ،» قال. لم تكن التحيّة هي التي أتوقّعها، وراح ينظر فوق كتفيّ، عوضًا عن التحديق في عينيّ كما كنت أتوقّع.

«اشتقتُ إليكَ،» هكذا بدأت.

«كنتُ حقًّا منشغلاً.»

كان واقفًا هناك بلا حراك. بدأ كلّ واحد منّا يشعر بالحرج. حاولت إنقاذ الموقف.

«هل تريد الحصول على شيء من البوظة بعد المدرسة؟»

«أوه،» قال. «لا أقدر فعلًا.»

ساد الصمت من جديد. لم يُفسّر موقفه، وامتدّ الوقت بشكل مزعج.

«سأراكِ في الجوار،» قال، ثمّ سار نزولًا في الممشى من دون إلقاء أيّ نظرة وراءه.

وقفت في مكاني لوقت طويل. وفي تلك الليلة على فراشي، حاولت عدم التفكير في الأمر. وفي اليوم التالي، عزمت على التحدّث إليه مجدّدًا. تخيّلته يقول لي إنّ ما حصل البارحة كان مجرّد سوء فهم كبير، وسنضحك على ذلك لاحقًا.

لمّا لحقت به وأدركته، غضب كثيرًا.

«ماذا تفعلين؟ لماذا تتبعينني بهذا الشكل؟»

«لكن يا سامي....»

«لكن لا شيء. إن كنتُ في حاجة إلى رؤيتك، سأتّصل بك. لكن إلى أن يحين ذلك، أنا مشغول.»

«سامي...،» بدأتُ من جديد بينما أدار ظهره ومضى. وبعد أن سار عدّة خطوات، انضمّ إلى مجموعة من الفتيان، وخاطبهم بشيء ما لم أتمكّن من سماعه، وضحكوا جميعًا.

جاءت الأسابيع القليلة التالية مُروّعة. عرفت في مكان ما داخلي أنّي أنفقت قبلًا قطعة النقود الوحيدة التي كان بمقدورها شراء رضاه.

حلّ الشتاء قاسيًا وقارسًا. لقد تحوّل حزني إلى اكتئاب مُملّ. وكأنّ هذا لم يكن كافيًا، بدا عليّ كأنّي أُصبتُ بشكل من أشكال آلام المعدة، ولم يعد بمقدوري الإبقاء على الطعام داخل معدتي، ولا سيّما في الصباح. خطرت على بالي فكرة مُروّعة. حاولت دفعها جانبًا، لكن ما إن دخلتْ رأسي لم تعد لتتركني وشأني. في اليوم التالي، قصدتُ العيادة.

أتتني مساعدة الطبيب بنتائج الفحص. «أنتِ حامل. هل تريدين أن أُعيّن لكِ موعدًا للقيام بعمليّة إجهاض؟» خرجتْ كلماتها بشكل روتيني، لكن ما كان بوسعي سماعها. ماذا سأفعل؟ كيف سيتصرّف أبي متى اكتشف هذا الأمر؟

وفي اليوم التالي، وجدتُ سامي.

«ماذا تريدين؟» سأل.

نقلتُ إليه الخبر ببضع جمل قصيرة. ساد صمت لوقت طويل. ثمّ نطق بصوت متقطّع لكن بنبرة.

«هذا الجنين ليس لي.»

«ماذا؟»

«هذا الجنين ليس لي.»

لم أعد أقوى على التكلّم. شعرت بتقلّص في حنجرتي، «ماذا قلتَ؟»

«أنتِ سمعتِ ما قلت.»

« أنتَ... لا يُمكنك فعل هذا معي.»

«بوسعي جلب خمسة شُبّان آخرين وجعلهم يقولون إنه قد يكون لهم.»

ذهبتُ إلى البيت وجلست فحسب – لم يكن لديّ أيّ فكرة كم استغرق ذلك – أتفرّس في شكل الثلج على النافذة.

بعد حين، سمعتُ طَرقًا على الباب. إنه سمير الذي جاء لمساعدتي على تعلّم الرياضيّات. لم أكن أشاء رؤية أيٍّ كان، لكنـي لم أكن أعرف ما أقول، لذا سمحتُ له بالدخول.

فتح كتاب الرياضيّات، ثمّ نظر إليّ.

«ما الذي يُزعجكِ يا سلوى؟»

نظرتُ إليه ثمّ أجهشت بالبكاء. اقترب سمير من المكان حيث كنت جالسة جاعلًا ذراعه بلطف حول كتفيّ. يا له من إحساس طيّب لمُجرّد أنّ شخصًا ما يُعانقني.

«مهما كان الأمر، بإمكانك إعلامي به.»

لربّما كان بمقدوري إعلامه. فهو لطالما تفهّمني، منذ سنوات المرحلة الابتدائيّة.

أخيرًا أفشيتُ أمامه من دون سابق تفكير كيف أنّي دمّرت حياتي! فأنا حامل. صُعق لأوّل وهلة، كما أنّ وجهه فضح بعض العواطف الأخرى. لعلّ ذلك كان خيبة أمل أو ألم، لكنّي كنتُ مركّزة أكثر من اللزوم على ذاتي.

لم يقل أيّ شيء لوقت طويل. ثمّ هزّ رأسه، وكأنه انتهى للتوّ من حديث مع ذاته. قال: «لا تتخلّصي من طفلك؛ أنا سأتزوّجكِ. سأتكلّم مع أبيك. سترين كيف أنّ الأمور ستجري على ما يُرام.»

شعرت بقسط كبير من الراحة والانشراح، بما أنّ شخصًا آخر كان على استعداد لأخذ على عاتقه الخراب الذي تسبّبتُ به لحياتي حتى إني وافقتُ على ذلك.

لم يكن سمير رجل أحلامي، لكنه كان على استعداد لقبولي كما أنا. مرّت السنون ووجدتُ أنّي كنتُ أكره سمير – وكأنها كانت غلطته. لم ينل أيٌّ منّا ما كان يرجوه.

لكنّ قصّتي لا تنتهي عند هذا الحدّ. لا يزال لها فصل إضافي. وقد حصل ذلك بعد سنوات عدّة. رأيت سامي في الشارع. لم يتمكّن حتى من معرفتي. لم تتمكّن السنوات من نزع وسامته عنه، لكنّ المرأة التي كانت بصحبته هي التي لن أنساها أبدًا. كان يُعاملها بازدراء.

سرّعي خطواتك أيتها المرأة! ولا تدعيني أبطئ في سيري من جديد بسببك!» لم ترفع ناظريها أبدًا بل راحت تسير بأكثر سرعة. أمّا هو فلم يكن لينظر قطّ إلى الوراء؛ بالإمكان معرفة أنها عانت هذا على مدى سنين.

رحتُ أراقب مرّة جديدة سامي وهو يخرج من حياتي. كان وجهي قد ترطّب بدموع قديمة جدًّا. كانت هذه الدموع من بئر يعود قِدمها إلى عشرات السنين. إنّ فظاعة ما كنت قد نجوت منه بالجهد – سامي وسوء معاملته – وما فزت به بالمقابل – محبّة سمير – حلّا عليّ، ورحت أبكي وأنا قابعة في مكاني على الرصيف.

ثمّ أتى سمير إلى جانبي. «ما الذي يُزعجكِ يا عزيزتي؟»

كان اهتمامه كفيلًا برفع ثقل قديم عنّي، ولم يكن بإمكاني حتّى التكلّم.

بدا على سمير أنّه لم يتوقّف عند هذا الأمر. أخذ بذراعي كما كان قد اعتاد أن يفعل وسرنا جنبًا إلى جنب. ضغطت على يده، فنظر إليّ لوقت طويل. لم يُصرّح أمامي طيلة تلك السنوات بأنه يُحبّني. اكتفى بالقول إنّ الأمور ستسير على ما يُرام بالنسبة إلى الطفل وإلى أبي، وأخبرني أنه سيتزوّجني – وبأنّ الأمور سوف تسير على ما يُرام.

«شكرًا،» قلت. «كنتَ على حقّ، أنت تعلم ذلك.»

«عمّا تتحدّثين؟» سأل.

«آه، كنت فقط أتذكّر شيئًا قلته لي منذ وقت طويل. لقد أدركت الآن أنك كنتَ على حقّ.»

مِن شخص تعلّم الدرس بالطريقة الصعبة.

جدّتك
سلوى

الوحدة ٥ | الدرس ٢٣ إغراء إشباعنا الفوري لرغباتنا

أعزاءنا:

شكّلت قطعة الحلوى الخضراء التي تخصّ سلوى، إحدى مقتنياتها الثمينة. كانت الشيء الوحيد الذي تذكّرت أنّ أباها وهبها إيّاه.

كانت تلك الحادثة مليئة بالعواقب غير المقصودة....

كان والد سلوى رجلًا لطيفًا، يُفرط في شرب الكحول، والغريب في الأمر كما يبدو، أنّه كان يخاف من سلوى عندما كانت فتاة صغيرة. أفترضُ أنّه لم يكن يعرف طريقة التعامل معها كما أنّه كان يخشى التصرّف معها بشكل خاطئ. لكنّ الخوف لم يكن بمثابة شعور مقبول، لذا حلّ الغضب مكانه عند أبيها.

عندما كان على أمّها ملازمة المستشفى على مدى ستّة أسابيع بسبب مشكلة عانتها في الدم، وجد نفسه بمفرده مع طفلة في الرابعة من عمرها للاعتناء بها. كان لديه أخت في مدينة أخرى، لكنّه بما أنّه لم يُكلّف نفسه عناء التحدّث إليها على مدى سنوات، لم يكن له أيّ مساعدة مرجوّة من أخته. كان هناك دار حضانة تعتني بالأطفال، تهتمّ بسلوى خلال جزء من النهار؛ أمّا خلال ما تبقّى من الوقت، فكان أبوها يعتني بها.

غالبًا ما كان يتركها لفترات طويلة. وخلال إجازات نهاية الأسبوع، كان يسكر ويبقى سكرانَ. كان يصطحبها معه إلى المستشفى مرّتين في الأسبوع لرؤية أمّها. حدث في نحو منتصف فترة الستّة أسابيع هذه، أن دخلت قطعة الحلوى الشفّافة الخضراء عالمها.

كانت سلوى تتطلّع قُدمًا إلى زيارة أمّها، هذا مع كونها كانت تنفر من الروائح والأصوات داخل المستشفى. كان أبوها يُلبسها أفضل تنّورة وقميص عندها لكلّ زيارة. لكن لدى بلوغهما المكان، بالطبع لم يكن هو يرتاح مثلها هناك. ذات مرة، لم يمكثا سوى ١٥ دقيقة فقط، هذا مع كون رحلتهما التي أقلّتهما إلى هناك استغرقت نحو ٤٥ دقيقة!

لم تكن سلوى تعلم في ذلك الوقت أنّ أباها لا يستطيع البقاء من دون مُسكر أكثر من ساعات قليلة فقط. كانت زياراتهما إلى المستشفى تجعله يبلغ الحدّ الأقصى لاحتماله. وفي إطار سعيه لوضع حدّ لتأفّفها عندما يتركها وحدها أو يرغمها على ترك أمّها قبل قضائها الوقت الكافي في زيارتها، خطرت على باله لعبة الحلوى.

لدى دخولهما المستشفى ذات مساء، أخبرها أنّ بوسعها الحصول على قطعة واحدة من الحلوى، على أن تضعها في فمها. ومتى انتهت من الحلوى، يكون قد حان الوقت للرحيل. في البداية، كان يسرّها مجرّد الحصول على الحلوى القاسية، بحيث راحت تمتصّها أو تمضغها على عجلة قبل أن تكون على استعداد للرجوع إلى البيت بوقت طويل. كان أبوها يسألها: «هل لا تزال قطعة الحلوى داخل فمك؟ افتحي فمك وأرني إيّاها.» كان كلّ ما عندها لإظهاره هو لسان مصبوغ باللونين الأحمر أو البنفسجي. لم يعد هناك أيّ أثر للحلوى. كان يُعدّ هذا في نظر أبيها علامة على أنّه حان الوقت للرحيل، وهكذا كانا يُغادران بسرعة.

كانت سلوى بالطبع تشعر بالانزعاج الشديد بما أنّ مغادرتهما المُبكرة كانت ناتجة من عجزها عن عدم التهام قطعة الحلوى. كانت هي إلى حدّ ما، سبب عدم تمكّنهما من المكوث في المستشفى لزيارة أمّها لوقت أطول. ثمّ أعطاها أبوها قطعة الحلوى الخضراء الشفّافة والقاسية.

عندما نزع الأب عنها الغلاف ووضعتها في فمها، كان طعمها أروع بكثير من أيٍّ من قطع الحلوى التي أعطاها من قبل. كانت البنفسجيّة بطعم الحامض، فيما الحمراء لها طعم أشبه بالقرفة. أمّا هذه الحلوى الخضراء فكان طعمها حلوًا كالرحيق المستخرج من أكثر الزهور الاستوائيّة التي بإمكانكم تخيّلها. انكسر قلبها. فكيف سيكون بإمكانها مقاومة هذا الأمر؟

لكن على قدر ما كانت الحلوى الخضراء حلوة المذاق، كانت فكرة الجلوس على مقربة من سرير أمّها أحلى بعد في نظرها. وللمرّة الأولى قاومت الرغبة عندها لالتهام قطعة الحلوى الخضراء هذه بشكل خاصّ. فعوضًا عن امتصاصها أو طحنها تحت أسنانها، أبقت عليها بين أسنانها الخلفيّة للإبقاء عليها ناشفة قدر المُستطاع.

وعندما كان أبوها يسألها أن تُريه الحلوى، كانت تأتي بها إلى الجهة الأماميّة من فمها وتُريه الحلوى الخضراء وهي لا تزال على حالها.

كان يتعجّب من عدم إقدامها على التهامها. كانت تمرّ بضع دقائق ثمّ يلتمس منها أن يراها من جديد. لم تكن أمّها على علم «بلعبتهما» لكن في المرّة الثالثة التي طلب فيها رؤية قطعة الحلوى، بدأت تشكّ في ما كان يحصل.

أخيرًا، قرّر أبوها أنّه حان الوقت للرحيل، مع وجود الحلوى أو في غيابها – وهذه المرّة وافقت الأم. ففي كلّ مرّة قبلًا كانا على استعداد للذهاب، كان الحزن يبدو على عينيّ الأم التي كان ينتابها شعور بالوحشة. أمّا هذه المرّة فظهر عليها أنها تنبض بالحياة والحيويّة. كانت تدور معركة للبقاء برفقتها، وكانت ابنتها تفوز بصراعها الأوّل.

لعبة الحلوى انتهت في تلك الليلة، لكنّ شيئًا أهمّ بكثير بدأ –فعرفت سلوى وللمرّة الأولى في حياتها أنّه كان بإمكانها السيطرة على بعض الأمور في عالمها. لم تكن قد تُركت بالتمام تحت رحمة نزوات الآخرين ورغباتهم، على الأقلّ عندما كان الأمر يتعلّق بما يدور داخلها.

لم تأكل أبدًا قطعة الحلوى، بل لفّتها وحافظت عليها كتذكار على أنّها لم تكن تحتاج إلى الاستسلام والرضوخ لضعف أبيها، ولا حتّى لضعفها هي. لم يسبق لها أن سمعت العبارة "الإشباع المؤخّر للرغبات"، لكنها ذاقت قوّة مقاومة الميول المتهوّرة من أجل الفوز بمكافآت أعظم – مثل قضاء المزيد من الوقت بجوار أمّها.

بحسب النظرة الشاملة إلى الأمور، قد تبدو معارك الحلوى أقلّ بعض الشيء من أمر عَرَضي وتافه. لكن داخل قلب فتاة صغيرة واحدة، شكّل ذلك بداية الاستقلال، وما هو أكثر من ذلك – عزمها على ألّا تكون مستعَبدة لرغباتها.

جدّاتكم

الوحدة ٥ | الدرس ٢٤ نزع القناع عن وسائل الإعلام

أنا ليلى، رأيت مرّة ساحرًا يقوم بشيء من السحر المدهش. وعندما طلبت منه أن يكرّر الأمر، ابتسم وقال: "مرّة واحدة تُعدّ سحرًا؛ أمّا المرّة الثانية فتُعدّ ثقافة. وعليك أن تدفع ثمن الثقافة." هذه الملاحظة القصيرة والطريفة، لن أنساها أبدًا. من الواضح أنّه ما إن تتعرّف بالسرّ حتى لا يعود ذلك من قبيل السحر. بذلك يكون قد زال الشيء الكثير من الدهشة ومن قوّة الخديعة. فالأمور المُقنّعة والمُبهمة تستميلنا دائمًا أكثر من الأمور الظاهرة. اليوم، نريد نزع القناع عن واحد من أعمال السحر الأكثر كلفةً عليك على الإطلاق. نحن لن نستوفي منك ولا حتى ملّيمًا واحدًا!

نحن نثق بأنّ معلّمتكم قد جمعت من المواد اللازمة للقيام بهذه الخدعة. هذا العمل السحري بإمكانه أن يجعلك غير راضٍ بعد أن كنت راضيًا، ويُحوّل فضوليّتك إلى جوع شديد، ويخلق لديك حاجة لم تكن عندك، مُحوّلاً شخصًا لامعًا في ريعان الشباب إلى إنسان ساذج وأخرق. نحن نعرف ذلك! وقد حصل لكلّ واحد منّا، هذا مع كون نُمُوّنا وترعرُعنا في زمن كان فيه هذا النوع من الخداع والتحايل نادرًا. يُعرف هذا باسم "الإعلان". كثيرون من المنخرطين في عالم الأعمال، يُخبرونك كيف أنّ الإعلان هو الذي يُحرّك العالم.

يوجد في حوزة معلّمتكم التعليمات لهذا التمرين، لذا سندعكم تقومون بهذا الاختبار. إنّه جزء من الثقافة التي من شأنها أن تدفع عن نفسها كلفتها لدى استخدامك لها للمرّة الأولى.

جدّاتكم

الوحدة ٥ | الدرس ٢٥ قوّة القول «لا»

لا رسالة للجدّات

الوحدة ٥ | الدرس ٢٦ السبيل إلى تحقيق أحلامك

أعزاءنا:

الوصفات هي إلى حدّ ما أشبه بالنصيحة. فالنصائح الجيّدة يتمّ تناقلها من جيل إلى جيل. ولسوء الحظّ، يصحّ هذا على عدد من النصائح السيّئة. إنها وليدة التجربة والخطأ، وعرضة لأحكام الذوق الشخصي لكلّ فرد. قد يستغرق الحصول على المحتويات الصحيحة، وبالمقادير الصحيحة وقت طويل، ناهيكَ عن التفاصيل حول مدّة خَبزها وعلى أيّ حرارة. بعض الأمور هي حقّة وصحيحة عندما يتعلّق الأمر بإعداد وصفة للحياة.

حاولنا على مدى الأسابيع القليلة الماضية إقناعكم بوجود أمور تحت السطح في حياتكم ولها تأثيرها في العمق في الخيارات التي تتّخذونها. فاختيار المُكوّنات الصحيحة من حياتكم، وبالمقادير الصحيحة، يُعدّ المفتاح لاتّخاذ قرارات «ستترك طعمًا لذيذًا داخل فمكم.» (لم نُرد أنا وليلى ذكر هذا التلاعب اللفظي الأخير، لكنّ سلوى أصرّت أنّ فيه من الفطنة ما يحول دون حذفه. تمكّنا من تدبّر أمر التلاعب اللفظي لنقول التالي «إنّ معظم وجع البطن الذي يسود في العالم، سببه الذوق السيّئ.»)

فكّروا في القرارات كأنّها قالب من الحلوى. الزينة هي أوّل شيء ترونه. هنا يكمن الجزء السطحي من القرار. أنتم تزِنون العواقب المحتمَلة – الجيّدة والسيّئة – ما سوف يُكلّفكم ذلك على الأرجح، وإن كانت العواقب تشمل شخصًا آخر أم لا. بكلام آخر، تستعملون عقولكم لتقرير ما يجب فعله أو عدم فعله.

ثمّ هناك جسم قالب الحلوى. إنه الجزء الذي يمنح القالب شكله – إن كان سيكون دائريًّا أم مربّعًا، قصيرًا أم طويلًا، كبيرًا أم صغيرًا. إنه وليد العجينة والوعاء. كان لدى كلّ واحدة منّا مجموعة من الأوعية التي استخدمناها. من أجل ذلك، جاءت قوالب الحلوى من إعداد سلوى دائريّة دائمًا، وقوالب ليلى مربّعة. تلك كانت الأوعية الوحيدة المتوافرة لديهما.

هذا الأمر أساسيّ جدًّا في معرض تحضير قوالب الحلوى، حتّى إنّنا بالجهد نفكّر فيه على الإطلاق. وهنا تكمن المشكلة. أصبحنا نفكّر في هذا الجزء من اتّخاذ القرار على أنّه «قوانين العائلة غير المحكيّة». في إطار عائلتي (أنا ليلى)، كان أحد القوانين غير المحكيّة هو: «لا أحد مسموح له بأن يُظهر عواطفه.» وفي عائلة سلوى، كان رأي الآخرين يكتسب قيمة عظيمة، لذا «كيف تظهر من الخارج هو أهمّ ممّا يحدث في الداخل.» أمّا في بيت ليلى فلم يكن مسموحًا لهم إظهار أيّ ضعف. من هنا القانون: «ليس بوسعك أبدًا طلب المساعدة.»

لا أتذكّر تمامًا متى عثرنا على مفهوم قوانين العائلة غير المحكيّة، لكنّنا كنّا جميعنا نجتاز في ظروف عسرة في زيجاتنا. كذلك كان لأزواجنا مجموعة من قوانين العائلة غير المحكيّة، كما أنّ العديد منها كان يتضارب مع قوانيننا! شبّت سلوى وترعرعت على الاعتقاد «أنّه من الأهمّيّة بمكان الحضور على الوقت.» لكنّ زوجها تعلّم أنّ الوقت لغز من المفضّل تجاهله في أغلب الأحيان.»

صادف أنّه كان لنا جميعًا قانونان مشتركان. الأوّل، «لا تتحدّثوا عن 'القوانين' أو تشكّكوا في صحّتها – إنّها هكذا.» والثاني، «إنّه لأمر فظيع نقض أحد قوانين العائلة.» بالطبع، كنّا نحكم على بعضنا بعضًا في كلّ مرّة نقضت إحدانا القانون غير المحكيّ لشخص آخر – مع أنّ ذلك الشخص لم يكن قطّ على علم بوجود هذا القانون!

من أجل هذا دعوناكم إلى المُشاركة في لعبة ما هو متقاطع أو غير متقاطع مع المقصّ. لم يكن لما هو صحيح أو غير صحيح أيّ علاقة بطريقة نقل المقصّ، لكنّ الأمر كان يتعلّق بالكليّة بالقانون غير المحكيّ.

الجزء الثالث من قالب حلوى هو أخذ القرارات، هو الحشوة. لا تستطيع رؤية الحشوة على الإطلاق. قد يُشكّل هذا مفاجأة بالكامل لك عندما تقضمها للمرّة الأولى.

هل لا زلتم تتذكّرون مشاركتنا في احتفال فكّ العقد لاكتشاف بعض الدوافع في حياتنا؟ إنها موجودة عند كلّ واحد منّا. أحيانًا تظهر تحت شكل مخاوف لا منطقيّة مزروعة في أعماقنا، مثل «إن كنتُ أُخفق، سيترتّب على ذلك عواقب فظيعة.» أحيانًا تكون أكاذيب تُقال فينا وقد قبلناها كأنّها حقّ وصحيحة: «لا قيمة كبيرة لي فعليًّا.» وأحيانًا أخرى تكون نذورًا اتّخذناها بعد أن يكون قد لحق بنا ضرر ما: «لن أعود أشارك أحدًا مشاعري.»

هذه الأجزاء الثلاثة من «قالب الحلوى» لها دورها الهامّ في القرارات التي نتّخذها. نحن أعددنا تمرينًا لكي تقودكم فيه معلّمتكم، لمساعدتكم على رؤية كيفيّة عمل كلّ هذا في حياتكم. كان يلزمنا وقت طويل لإدراك حتّى وجود جهات مخفيّة تعمل على إقناعنا وناشطة في تقويض حياتنا. أمّا الأخبار السارّة فهي أنّه كان هناك دائمًا قوىً مخفيّة داخل كلّ واحدة منّا طفت على السطح خلال الرحلة. عندكم أنتم أيضًا مزيج من المُكوّنات الجيّدة والسيّئة لكي تستخدموا منها. المسألة تتعلّق بأيّ منها ستدعونها تؤثّر في وجهة قراركم.

جدّتكم

سعاد

الوحدة ٥| الدرس ٢٧ أهمّيّة رسم الحدود

أحبّاءنا:

كم تملّكنا الحسد لدى اكتشافنا أنّ سلوى مزمعة أن تزور خالتها في موسكو. بالطبع، كنّا جميعنا في نحو سنّ السابعة في ذلك الوقت. كان الحدث العظيم هو زيارة حديقة الحيوانات. كان في حوزة سلوى نشرة من خالتها فيها وصف لكلّ أصناف الأشياء المُثيرة للاهتمام داخل حديقة الحيوانات. حرصت على أن نتعلّم عن هذه الحديقة، سواءً شئنا ذلك أم لم نشأ.

كان قد تمّ افتتاحها في عام ١٨٦٤ وتوسّعت حتى باتت تحوي أكثر من ٣,٠٠٠ من الطيور والزحّافات والثدييات والأسماك واللافقاريّات – مهما كانت هذه. بالطبع، إنّها أكبر بكثير اليوم، لكنها مع هذا كانت تبدو في نظرنا أشبه بـ «ملاذ» لحيوانات البرّيّة. تعلّمنا أنّ الفهود تُجيد السباحة، الأمر الذي لا يصحّ على النمور. كما أنّ الدببة في معظمها على «جزيرة الحيوانات» تُفضّل قضاء أيّامها وهي تلتقط الطعام بالقرب من خنادق الماء حيث يتمشّى الناس، على تسلّق الأشجار الباسقة الواقعة ضمن سياجها. كانت الحديقة بكاملها، بحسب وصف سلوى لها لاحقًا، أشبه بخليط متشابك رائع من الأقفاص، والسياجات، والخنادق المائيّة، والأسوار الزجاجيّة وكلّها مصمّمة للحؤول دون إقدام السكّان على التهام بعضها بعضًا.

كان كلّ شيء يسير على ما يُرام. التقطت خالة سلوى صورة لها أمام «بيت القرد» على «جزيرة الحيوانات»، وكانت هذه الرحلة الرائعة ستبقى محفورة داخل ذاكرة الصبا. ثمّ بعد قليل على بلوغهم السياج المفتوح للبجع الأسَود المشهور، حدثت سلسلة من الأمور التي دخلت الذاكرة.

البجع مخلوقات كبيرة ورشيقة، ففكّرت خالة سلوى أنها ستكون فرصة رائعة لسلوى في حال تقدّمت لرؤية هذه الطيور الجميلة عن قرب. الآن، تعرفون على الأرجح أنّه من غير المُفترض فيكم إطعام الحيوانات داخل الحديقة، لكنّ خالة سلوى لم تنتبه لهذا.

القطع الصغيرة التي رمتها خالة سلوى من كعكتها في الماء، جذبت واحدة من أكبر طيور البجع الأسَود إلى ضفّة البركة. مع المزيد من التملّق، جعلت طائر البجع يخرج بالكامل من الماء لالتهام مخزون الخبز الذي راح يتضاءل. مَن يدري؟ لعلّها كانت حقيقة وجود طائر البجع خارج الماء وهو مملوء توقّعات، لكنّ نفاد الطعام، كان أيضًا بمثابة نهاية العلاقة في نظره. لم تُدرك خالة سلوى التغيير الحاصل في العلاقة وانتهزت الفرصة لمدّ يدها – بحكم طابع الصداقة البحتة – لتوديعه بالتربيت على عنقه.

أحنى الطائر عنقه، وفتح جناحيه، ثمّ أطلق صوت حفيف استعدادًا للانقضاض! يظهر أنّه كان غاضبًا وبوسعه التحرّك بسرعة! كما تبيّن أنّ خالة سلوى تقدر أن تركض بسرعة فائقة متى دعت الظروف. بعد أن رفعت تنّورتها بيدها وركضت، كانت أسرع من الطائر!

كان بإمكانها أن تنجو من دون أذًى لو لم تخطئ في اعتبارها الباب المفتوح بمثابة ملاذ آمن. هرع جمهور غفير لرؤية مشهد خالة سلوى وهي تحاول أن تسبق طائر البجع. وهكذا عندما دخلت عن غير قصد حظيرة حيوان الكنغارو (كان أحد الخدم قد فتح الباب لإطعام هذه الحيوانات الغريبة الشكل)، حاول الجمع فورًا تحذيرها. بالطبع، صراخ ٥٠ شخص في آن واحد، نادرًا ما يكون واضحًا. إلّا أنّ هذا روّع حيوانات الكانغارو.

الكانغارو، التي شعرت بأنّ شيئًا ما لا بدّ أنّه حاصل، هرعت باتّجاه المدخل للترحيب بالذي ظنّوه، على الأرجح، أنه معيلهم الجديد. مقابل الكانغارو التي تقفز، يبدو طائر البجع الذي يتحضّر للانقضاض كلا شيء، ولا يتسبّب إلّا بإزعاج بسيط – وبالأخصّ متى كانت حيوانات الكانغارو تقفز مباشرة باتّجاهك!

كان ذلك من سوء الحظّ أن يكون ماعز الجبل يسكن مؤقّتًا في الحظيرة القريبة. كان المسؤولون عن الحظيرة متأكّدين من عدم قدرة الماعز القفز فوق أسوار بيتهم المؤقّت. إنها لحقيقة مثبتة أنّ الذكور من ماعز الجبال، تشكّل بعد الفِيَلة، والحمير الوحشيّة، والحيّات السامّة، الحيوانات الأخطر داخل أماكن أسرها.

بالطبع، عندما قفزت حيوانات الكانغارو جميعها إلى داخل الحجرة التالية، سقطت بذلك كلّ الرهانات. الميل الفطري لدى الماعز إلى القفز طفا على السطح عندها، تُحرّكه رغبة جامحة في الأخذ بالثأر. بدا السور غير مناسب على الإطلاق للإبقاء على الماعز داخله.

قالوا إنّها كانت تلك المرّة الوحيدة التي اضطُرّ خلالها المسؤولون عن الحديقة إلى إقفال جزء بكامله من الحديقة في أثناء فترة الزيارات. فأمام ظاهرة انتشار الكانغارو والبجع وماعز الجبال في كلّ مكان وإقدام خالة سلوى على الركض في المعابر، رأوا أنّه من الأفضل الآن تثبيت الوضع والقبض من جديد على زمام الأمور قبل أن يُصار إلى انتهاك المزيد من الحدود. صرّح المسؤولون عن الحديقة أنّ معجزة حصلت بسبب عدم إصابة أحد بضرر كبير.

غالبًا ما كرّرت سلوى خلال السنوات اللاحقة أنّ الزيارات التالية إلى حديقة الحيوانات بدت غير ممتعة مقابل تلك الزيارة. غير أنّها أبدت أسفها حيال أمرين. الأوّل كون خالتها تشبّثت بآلة التصوير طيلة فترة الحدث ولم تتمكّن من أخذ ولا حتّى صورة واحدة. أمّا الأمر المؤسف الثاني، فهو أنّ خالتها لم تعد تُبدي أيّ اهتمام بإجراء زيارة ثانية إلى حديقة الحيوانات – هذا مع أنّه كان عليها انتظار سنوات عديدة قبل السماح لها بدخول الحديقة من جديد!

جدّاتكم

الوحدة ٦

الوحدة ٦| الدرس ٢٨ العالم غير المنظور

أعزاءنا:

من المسائل التي حاولنا مرارًا وتكرارًا إقناعكم بها هي أنّ الحياة فيها أكثر ممّا تراه العين. فالدوافع وراء ما نفعل، غالبًا ما تكون غير واضحة حتّى لنا. كما أنّ تأثيرات المُخدِّرات والكحول والجنس قبل الزواج، تصل إلى ما هو أعمق من أيّ شيء بوسعنا قياسه أو اختباره. هناك عالم غير منظور محيط بكلّ واحد منّا، ونحن نُعرّض أنفسنا للخطر بتجاهلنا إيّاه.

قد تقعون في تجربة النظر إلينا كسيّدات متقدّمات في السنّ نؤمن بالخُرافات لدى تحدّثنا عن الواقع الروحيّ. لن نكون الأوائل، ولن نكون على الأرجح آخِر مَن يواجهون مقاومة لفكرة أنّ غير المنظور يؤثّر في ما هو منظور.

ليلى، كما تعلمون هي طبيبة. آه، ما أكثر الساعات التي قضتها في البحث والتنقيب داخل كتبها الطبيّة! بالطبع، لم تكن الوحيدة لاكتشاف أمر أو أمرين عن الطبّ. لا نزال نتذكّر ذلك الصباح ونحن نشرب الشاي عندما نقلت ليلى إلينا شيئًا من التاريخ. أشارت إلى عواقب الحياة أو الموت التي تنتج عن عدم أخذ العالم غير المنظور بعين الاعتبار.

ففي نحو العام ١٨٤٠، عرف الطبّ تحوّلًا أساسيًّا. فللمرّة الأولى بات بإمكان الجرّاحين جعل مرضاهم يفقدون الوعي من خلال الاستعانة بمواد التخدير السائلة كمادّة الأثير مثلًا. أصبح بإمكانهم جعل مرضاهم ينامون خلال إجراء عمليّة جراحيّة لهم. كما أنّ هذا مكّن الجرّاحين من مواجهة أشكال عدّة من الأوجاع، الأمر الذي لم يكن قبلًا ضمن متناولهم، وهكذا ارتفع عدد العمليّات بشكل مدهش. لكن من جملة الأشخاص الذي بقوا على قيد الحياة خلال العمليّة الجراحيّة، كان ستّة من أصل كلّ عشرة مرضى يعيشون فقط بعد العمليات، وذلك بسبب الالتهابات التي تُصيبهم. كان الأربعة يموتون من جرّاء الغنغرينا، والتسمّم، والتهابات بكتيريّة أخرى خلال عمل الأطبّاء في ظروف قذرة بحيث كانوا ينتقلون من مريض إلى آخر مُكتفين فقط بمسح الدم عن أيديهم. كان معظم الأطبّاء ينظرون إلى الجراحة بالطريقة نفسها التي ينظر ميكانيكيّ السيّارات إلى تصليح السيّارات – يُخرجون القطعة، يعملون على إصلاحها قبل ردّها إلى مكانها.

بعد نحو ٢٠ سنة أي في ١٨٦٤، بدأ "جوزف لِستر،" جرّاح إنكليزي من "غلاسكو،" اسكتلندا، في قراءة نظريّات أحد أعاظم علماء فرنسا، "لويس باستور". أخيرًا كان قد جرى تطوير المجهر بشكل مكّن العلماء من استكشاف عالم الكائنات المجهريّة الذي كان غير منظور من قبل. اعتبر "باستور" أنّ هذه الكائنات المجهريّة قد تكون السبب أو هي المسؤولة عن نقل كلّ الالتهابات التي كانت تُنزل الكوارث في العالم الطبّي. وهكذا، شرع "لِستر" في البحث عن تطبيق عملي لنظريّة "باستور".

لم يمضِ وقت طويل حتّى راح "لِستر" يحثّ زملاءه على تبنّي تحوّل جذري في الممارسات الطبّيّة: "اغسلوا أيديكم وأدواتكم جيّدًا قبل إجراء العمليّات!" كان ذلك بمثابة جواب بسيط على معضلة الالتهابات المُعقّدة – أمر بسيط جدًّا فوق اللزوم في نظر العديد من زملائه. شمتوا به ورفضوا أخذ نصيحته بمجرّد غسل أيديهم. "عالم غير منظور من كائنات صغيرة تزحف في كلّ مكان، حقًّا!" خلال فترة العشر سنوات التالية، ظلّ الألوف يموتون بعد خضوعهم لما ننظر إليه الآن كعمليّات جراحيّة بسيطة – وكلّ ذلك بسبب رفض تبنّي أسلوب بسيط – "أغسلوا أيديكم". أنا متأكّدة من أنّ هذا الأمر لم يكن في نظرهم أقلّ سخافة من الطلب من ميكانيكيّ السيارات السهر بكلّ عناية على غسل الشحوم التي علقت تحت أظافره قبل العمل على السيارة التالية.

على طول فترة الثلاثين سنة التالية، حثّ "لِستر" جميع الجرّاحين على ضرورة اعتماد المُطهّرات والمعقّمات. ابتكاراته والتحسينات التي أدخلها على أساليب التعقيم، أكسبته في نهاية المطاف مكانةً واعتبارًا على الصعيد الدولي. العديد من الممارسات المألوفة في مجال الطبّ اليوم، مردّها إلى تكريس "جوزف لِستر": اعتماد خيوط معقّمة، وشاش معقّم لخياطة الجروح، وتجبير العظام المكسورة؛ ما هذا سوى القليل من مساهماته. وكلّ ذلك بسبب أخذه العالم غير المنظور على محمل الجدّ واتّخاذ الخطوات اللازمة للعيش في ضوئه.

عندما كنت في سنّكم، كانت فضوليّتي تدفعني إلى طلب معرفة كلّ شيء! كانت النباتات والحيوانات تُدهشني. لكن، أكثر ما كان يُحيّرني هو جسم الإنسان. برأيي، هذا ما دفعني إلى دراسة الطبّ. كنت أريد أن أعرف طريقة عمل كلّ شيء. وبالطبع، كلّما تقدّمت في المدرسة، كنت أسمع أكثر فأكثر كيف أنّ بوسع العلم إخبارنا كلّ ما نحتاج إلى معرفته.

وثقت بأنّ المعرفة العلميّة شكّلت الإجابة عن كلّ سؤال والحلّ لكلّ معضلة. بقيت أفكّر بهذه الطريقة إلى أن، كما صرّحت قبلًا، وجدت نفسي وقد أصبحت مدمنة على المخدّرات. لا تُسيئوا فهمي. المعرفة مقتنىً قيّم، ونحن الثلاثة حاولنا أن ننقل إليكم الشيء الكثير ممّا نعرفه عن المخدّرات، والكحول، والجنس قبل الزواج. لكن، وكما تعلّمت بالطريقة الصعبة، حتّى معرفتي العلميّة الدقيقة بالمخدّرات، لم تمنعني من أن أصبح مدمنة. فبعض الأمور القويّة كانت تحصل تحت سطح حياتنا جميعنا.

فمن خلال اختبارات غالبًا ما كانت مؤلمة، اكتشفنا كيف أن أهلنا وزوج كلّ واحدة منّا، كان لهم تأثير قويّ علينا، حتّى ولو كان من الصعب رؤيته في معظم الأحيان. أدركنا وجود قوىً قادرة تعمل في داخل كلّ واحدة منّا حتّى يُصبح أمرًا صعبًا تجنّب مدمّري الأحلام.

لكن لم يكن حتّى فهم هذه القوى بالأمر الكافي. وعلى غرار «لِستر» بدأتُ أُدرك وجود قوىً غير منظورة وأكثر اقتدارًا عاملة في حياة كلّ واحدة منّا. سبق لي أن أخبرتكم كيف أنّه كان لصلوات سلوى دور هامّ في مساعدتي على الكفّ عن تعاطي المُخدّرات. تُعدّ الصلاة مثلًا على قوّة مُلزمة، لكن غير منظورة.

لكنّي اكتشفت أيضًا وجود أخطار غير منظورة وهي، على غرار البكتيريا التي تحدّث عنها «لِستر،» كان بإمكانها أن تؤذي وحتّى أن تقتل. لقد أقنعني إدماني على المُخدّرات أنّه على الرغم من درايتي بالأمر الفطن، والحكيم، والصحيح لكي أقوم به، ثمّة شيء داخلي، مبدأ مدمّر ما، يشدّني وراء الخيارات الخاطئة والمدمّرة.

كم مرّةً انتاب كلّ واحدة منّا شعور يشبه بعض الشيء ما شعرتم به على الأرجح خلال مشاركتكم في هذه اللعبة؟ أيّها الأحباء. كنت بالفعل أستمتع بعملي كطبيبة عندما بدأت أدرك ببطء أنّ أمرًا ما غير منظور كان يتسلّل خلسةً إلى حياتي لتعطيل فرصي في إصابة هدف أحلامي للحياة.

ولعلّ أكثر ما يُرعب في الأمر كون ذلك الأمر داخليًّا ولا يسعني رؤيته ولا حتّى فهمه. في نهاية المطاف، سألتُ سعاد عن رأيها في معضلتي. رأت أنّ مشكلتي يجب أن يكون لها علاقة بعائلتي. في ذلك الوقت، أصبحت تُدرك كيف أنّ العديد من مشاكلها الخاصّة تعود جذورها إلى النزاعات التي كانت تحصل مع أهلها خلال مرحلة صباها.

أنا وسعاد سألنا سلوى لكي نعرف رأيها في الأمر.

«نحن مقتنعتان بوجود مبدأ غير منظور ساكن داخل كلّ واحدة منا»، قلنا لها. «إنّه يجرّنا بعيدًا عن أحلامنا ويُغوينا

لكي نُفكّر، ونشعر، وحتّى نقوم بأشياء نعرف أنّها ستعود علينا بالضرر."

في البداية، لم تنطق سلوى بشيء، بل اكتفت بالابتسام.

انزعجْت في الواقع بعض الشيء منها. بدا كأنّها لم تأخذ ما قلناه لها على محمل الجدّ.

"أنظري"، قلت لها. "قد يبدو هذا مُسلّيًا في نظرك، لكنّه بكلّ تأكيد ليس كذلك بالنسبة إلينا! كيف ستشعرين في حال اكتشافك وجود قوّة مقتدرة داخلك لا يمكنك السيطرة عليها – والتي يبدو بالفعل أنّها تتسلّط عليك؟"

ظهر التجهّم على وجه سلوى. "أنا لم أنظر إلى فكرتكم باستخفاف. في الواقع، أنا أعرف بالتّمام ما تشعرون به. فتلك القوّة السلبيّة هي داخلي أنا أيضًا."

"موجودة داخلك؟" قالت سعاد غير مُصدّقة ذلك.

"أجل،" تابعت سلوى. "في الواقع، أظنّ أنّ كلّ واحد يُصارع مع الأمر نفسه الذي تتحدّثان عنه."

"هل هذا صحيح؟" سألت. هزّت سلوى رأسها علامة تأكيد الأمر.

"لكن ما هو هذا الأمر بالتحديد؟" سألتُ وأنا أهزّ رأسي. "إنّه مرض يقع تشخيصه خارج نطاق قدرتي."

نظرت سلوى إلينا للحظة وهي غارقة في تفكير عميق، وكأنّها تحاول تفحّص مقدار استعدادنا للإصغاء إليها.

"برأيي، جرى إطلاق تسميات عدّة عليه على مرّ السنين"، قالت. "بعضهم سمّاه العناد. آخرون يعتبرونه بمثابة تمرّد أو أنانيّة." توقّفت سلوى عن الكلام ثمّ تابعت.

«لكن لعلّ أفضل اسم لهذا الأمر في نظري، وهو أيضًا الأقدم. إنّ ما تتحدّثان عنه – ذلك المبدأ المُدمّر داخلكما – هو ما يُطلِق عليه المسيحيّون تسمية 'الخطيئة'».

لا أدري إن كانت الدهشة تملّكت سعاد مثلي، لكنّها سارعت فورًا إلى هزّ رأسها بشكل سلبيّ.

«نحن نعلم أنّكِ شخصٌ متديّن جدًّا يا سلوى، ونحترم معتقداتك. نحترمها حقًّا. وأعلم أيضًا ميلك إلى رؤية كلّ شيء من منظار دينيّ. لكن، وحتّى لو كنتُ متديّنة نظيرك، لا أظنّ أنّي سأسمّي ذلك الصراع الداخليّ، 'خطيئة'».

«أجل»، قاطعتُها للتعبير عن موافقتي، «أليست الخطيئة فعل أمور سيّئة، كالكذب، والسرقة، والقتل؟ نحن لسنا في معرض الحديث عن أيّ شيء من هذا القبيل.»

ابتسمت سلوى من جديد. «أنا أوافق على كون معظم الناس ينظرون إلى الخطيئة مثلكما. في ظنّهم أنّ الخطيئة هي مجرّد اسم للأمور السيّئة عينها التي يقترفها بعضهم مثل القتل، أو الاغتصاب، أو الإرهاب. لكنّي تعلّمت أنّ الخطيئة هي قوّة، شيء يدفعنا أو يجرّنا وساكن داخل كلّ واحد منّا. إنها تجرّنا باتّجاه الجانب المظلم للحياة، حتّى على الرغم من معرفتنا، ورغبتنا في فعل ما هو أفضل. وفي نهاية المطاف، الخطيئة هي رغبة عندنا للعيش منفصلين عن الله.

بالطبع، كان هذا مجرّد بداية للعديد من الأحاديث التي دارت حول ذلك الشيء داخل كلّ واحد منّا الذي يشدّنا إلى تحت ويحول دون تحقيقنا لأحلامنا. ثمّ رحنا معًا نحن الثلاثة نستكشف بأكثر تعمّق هذا العالم الداخلي غير المنظور، الجزء الجيّد منه كما الجزء السيّئ.

ونحن على إثر تعلّمنا شيئًا عن هذا العالم الروحيّ المخفيّ، كتبنا لكم بعض الرسائل الإضافيّة. لعلّي تأخّرت بعض الشيء ريثما أدركت طريقة عمل هذا العالم المخفيّ. آمل أنّكم لن تُقدموا أنتم على اقتراف أخطاء عن جهل كأخطائي قبل أن يتسنّى لكم استكشاف البُعد الهامّ في حياتكم – البُعد الروحيّ المخفيّ.

الأمور التي سنُشارككم إيّاها في الرسائل القليلة التالية، تُشكّل أهمّ العناصر لجعل أحلامكم تتحقّق.

وإلى ذلك الحين، تذكّروا أنّنا نحبّكم، يا أعزاءنا.

جدّاتكم

الوحدة ٦| الدرس ٢٩ الحالة الأسوأ على الإطلاق

أعزائي كريم، دارين، ومروان:

لكلّ واحد قصّته. سبق لنا أن روينا لكم بعضًا من قصصنا على أمل أن تجدوا أنفسكم في إحدى هذه القصص، ما يُساعدكم على تحقيق أفضل ما عندكم من أحلام. مروان، لعلّك لم تعد تتذكّر كيف كنت تتوسّل إليّ عندما كنت أصغر سنًّا كي أروي لك قصّة "الفتى الهارب". يبدو أنّك لم تكن تسأم قطّ من سماعها. هذا لا يفاجئني بما أنّ هذه القصّة ظلّت المُفضّلة عند كثيرين على مدى أكثر من ألفي سنة. يظهر أنها لا تعتق أبدًا أو تشيخ.

نودّ أن نروي لك القصّة مرّة أخرى، لكن بطريقة مختلفة قليلاً عن التي سمعتها في طفولتك يا مروان. إنّها تبدأ هكذا:

"كان لرجل ابنان. مضى الابن الأصغر إلى أبيه ذات يوم وطلب منه أن يُعطيه نصيبه من كلّ ما يملك. في ظنّي أراد بذلك تجاوز مراسيم العبور التقليديّة بحيث يقفز مباشرةً إلى مرحلة الرجولة والبلوغ. راوده الفكر التالي: 'بإمكاني تدبّر أموري بنفسي. فكلّ شيء يستغرق وقتًا طويلاً إن كنت أسيرُ في سرعة أبي. أريد أن أستقلّ وأن أذهب بعيدًا!'

"أعطاه أبوه ما أراد. وفي اليوم التالي، انطلق الابن الأصغر إلى أماكن مجهولة، مخطِّطًا أن يبتعد قدر الإمكان عن أبيه. وهناك في البلد البعيد، سوف يشعر بأنّه حرّ لفعل ما يُريد وما يهوى. كان يهوى القيام بتلك الأمور عينها التي كانت محظورة عليه هناك في البيت. عمل معظم الأمور والممارسات التي كنّا قد حذّرناكم منها. المخدّرات والكحول والجنس لم تَعُدْ من الأمور الغريبة عليه. لكن، لا أظنّ بالمقابل أنّ باستطاعتك أن تدعوها أصدقاءه. في الواقع، بعدما أنفق كلّ ماله، تخلّى عنه كلّ معارفه. كان عندهم ما يكفي من المشاكل حتى لم يعودوا يُبالون بمشاكله هو.

"راحت أموره تتردّى، وتسير من سيّئ إلى أسوأ. وهكذا انتهى به الأمر أن يعمل على إطعام الخنازير لحساب رجل لم يكن ليهتمّ به أكثر من اهتمامه بخنازيره. كان يتضوّر جوعًا ويغمره شعور شديد بالفشل، حتّى إنّه لدى جلوسه عند سياج زريبة الخنازير، بات طعام الخنازير يستميله بحيث بدا شهيًّا في نظره. في هذا الوقت، عاد إلى رشده، وراوده هذا الفكر: 'هناك في البيت ينعم الأقلّ شأنًا، بين العاملين لحساب أبي، بحالة أفضل من حالتي المزرية هذه!'

"سرعان ما امتلأ ذهنه بأفكار عن بيته. لم يكن بوسعه التفكير في أيّ شيء آخر. وهكذا راح يحلم بالرجوع إلى البيت حيث يحظى هناك بمكان دافئ ينام فيه، ويكون بوسعه الاستحمام، وتناول وجبة طعام مطبوخة في البيت. راح يحلم بهذا نهارًا وليلاً. لكنّه في الظلام، شرع يُفكّر في الطريقة التي بها سوف يتقدّم من أبيه. ماذا سيقول له؟ كيف يمكنه أن يصحّح الأمور؟ كان قلقًا بشأن اعترافه، في وقت سئم فيه صوت الخنازير ورائحتها النتنة في الليل. راح يُكرّر في رأسه بما سيُخاطب أباه.

الصيغة ١: الأب المُعاقِب

"كان الابن على وشك مغادرة مكانه عند سياج زريبة الخنازير، عندما قاطع مخطّطه صوت قائلاً: 'من المفضل أن تُفكّر مليًّا في الأمر قبل انطلاقك إلى البيت. هذا ما سيحصل.'

"ما إن قرّر الابن بشأن ما سيقوله، حتى راح يتوجّه بخطىً سريعة نحو بيت أبيه. أخيرًا، أصبح البيت أمام مرأى عينيه. ثمّ رأى الشاب رجلاً يخرج على عجلة من الباب ويركض باتّجاهه. إنه أبوه! لعلّ ضربات قلب الشابّ ازدادت داخل صدره. لعلّ أباه سيُسرّ برؤيته بعد طول غياب. ما إن اقترب الأب بعض الشيء حتى ناداه ابنه. ثمّ راح يُخاطبه بالكلام الذي لطالما كان قد كرّره بينه وبين نفسه. لكنّه لم يتمكّن قطّ من إكمال خطابه. ذلك لأنّ الأب سارع إلى رفع ذراعه اليُمنى المفتولة من جرّاء العمل الدؤوب على مرّ السنين، لكي يصفع كالسهم ابنه على وجهه بقبضة يده الحديديّة، فرماه أرضًا يتمرّغ في التراب. ثمّ وقف الأب الذي يستشيط غضبًا فوق ابنه وراح يرفسه بشراسة حتى اضطُرّ الفتى إلى الفرار من أمامه زاحفًا، ووجهه متورّم ومتّسخ بفعل اختلاط التراب بدموعه. وكلّ ذلك على وقع صوت أبيه الذي راح يصدح في المكان: 'كيف تتجرّأ أن تريني وجهك بعد

كلّ الذي فعلته؟‘‘

الصيغة ٢: الأب الغائب

”يسمع الشابّ بعض همسات الرضى في ليلة البرد القارس تلك. ثمّ، إذ بصوت آخر من داخل الزريبة يعرض رواية مختلفة:

”آه، كلاّ، أظنّ أنّ القصّة تتواصل على الشكل التالي: الولد يُسرع في طريقه نزولاً نحو بيت أبيه. ولدى بلوغه الأكمة الأخيرة التي تفصله عن أملاك أبيه، يبدأ الفتى بالركض. وفي مسيره، يفوته التعرّف بأيّ من العاملين في الحقول، لكنه لا يُبالي بذلك. لعلّه يركض بسرعة قصوى، الأمر الذي لا يُمَكّنه من رؤية الوجوه بوضوح. أخيرًا، يصل إلى البيت، ويتردّد هنيهةً ليلتقط أنفاسه ويُهدّئ قليلاً من روعه. ثمّ يقرع على الباب. بعد لحظة، يُفتح الباب، وإذ بشخص غريب يقف قبالته. وفجأةً، يبدأ الشاب يعي أنّ مظهره قذر وثيابه رثّة. ثمّ يُتمتم: ’أليس هذا بيت أبي؟‘ يذكر اسم أبيه ويلتمس أن يراه. علامات الغضب تظهر على وجه الغريب من جرّاء هذا التطفّل. وقبل أن يُطرح خارج المكان، يفهم أنّ أباه باع أملاكه هذه وانتقل إلى مكان آخر مع عائلته. كما أنّه لم يترك أيّ إشارة إلى مكان إقامته الجديدة.“

الصيغة ٣: الأب المُتطلّب

”ما إن خفتَ هذا الصوت، حتى أقدم صوت ثالث على رواية القصّة من جديد:

”كان الأب داخل البيت عندما يقرع الشاب الباب. يُحيّي ابنه بوجه مُتجهّم ويُصغي إلى الخطاب الذي كان الشاب قد تمرّن على إلقائه. يوافق الأب على تقييم الشاب للوضع، ويُعيّن له مكانًا بين الأُجَراء وعملاً في الحقول. في بادئ الأمر، يفرح الفتى لأنّ ثيابه الآن نظيفة مع كونها بسيطة. وعلى الرغم من أنّه يتناول وجبة متواضعة، إلاّ أنّه بات يأكل لشبعه، وطعامًا أفضل من الذي كان يختلسه من الخنازير. ولكن، مع مرور الوقت، إذ بألم مُضجر يحلّ مكان سعادة الشابّ. فهو يعمل اليوم تلوَ الآخر في الحقول التي كانت من المحتمَل أن تكون خاصّته. كما أنّه غالبًا ما يُشاهد أخاه الأكبر باللباس الناعم يتمشّى على سطح البيت مُستغرقًا في حديث عميق مع أبيه.

”كان بإمكانه هو أن ينعم بمثل هذه الأحاديث، وبمثل هذه الرفقة والمحبّة. أحيانًا، يسير الأب بنفسه عبر الحقول حيث يعمل أُجَراؤه. وفي كلّ مرّة يقترب الأب من ابنه، يعمل هذا على مضاعفة مجهوده. كما أنّ ضربات قلبه تزداد ويشعر الفتى كأنّ قلبه يوشك أن ينفجر عندما كان يسرق نظرة خاطفة إلى أبيه. فقد كان يتجرّأ أحيانًا أن يرجو مجيء يوم يعوّض فيه المجهود الذي يبذله حاليًّا عن خطيئته الماضية؛ كان يرجو أن ينظر إليه أبوه ذات يوم وقد تغيّر وجهه المتجهّم الحجري إلى تحنّن ورحمة عليه فيرى من جديد أنّ الذي يكدّ ويعرق داخل الحقول، ما هو إلاّ ابنه. هذا ما كان يرجوه الشابّ. لكنّ الأب كان دائمًا ينظر إليه نظرة احتقار بوجه قاسٍ متحجّر.“

الصيغة ٤: الأب القاسي القلب

”إذ بصوت آخر يتصاعد من وسط زريبة الخنازير القذرة:

”يرجع الشاب إلى البيت ويقترب من أبيه الموجود خارجًا في الحقول. يقف مقابله، ويُخاطبه بالكلمات التي كان قد أعدّها، تقطعها زفرات البكاء، والدموع تنهمر بغزارة على وجنتيه. ثمّ يحني رأسه منتظرًا ردّ الأب. لكن، لا يوجد أيّ ردّ. كلّ ما يُسمع هو صوت الفلاحين، وحفيف السنابل مع هبوب النسيم العليل بعد ظهر ذلك اليوم. يتجرّأ أن يسرق نظرة خاطفة إلى أبيه. بعد ذلك، ولشدّة دهشته، يُمعن النظر في وجهه. كانت نظرات أبيه تخترقه محدّقة في الحقول البعيدة. ’يا أبي؟‘ يقولها الشاب بصوت مرتجف. ’أبي؟‘ لكنّ الرجل العجوز لا يسمعه. يمدّ الفتى أصبعًا خجولة ويلمس بها ذراع الأب، ثمّ يُمسك بكُمّه ويشدّه. لكنّ الأب يبقى من دون أيّ حراك، ولا إشارة البتّة إلى أنّه حتّى شعر بلمسة ابنه. كلّ هذا وكأنّ الشابّ غاب فجأةً عن ناظريه. كان بوسعه مشاهدة الأب وملاحظته. لكنّ الأب لا يراه ولا يسمع صوته. ينطرح الشابّ أرضًا عند قدمَي أبيه. ثمّ يُخاطبه بأنين قائلاً: ’أبي... بابا، الرجاء أن تسمعني.‘

لكنّ الأب يتحوّل عنه متوجّهًا نحو بيته. 'أبي!' يصيح الشابّ. لكنّه لا يحصل على أيّ جواب."

الصيغة ٥: الأب العاجز

"كان قد حلّ الليل والظلام على أشدّه داخل زريبة الخنازير، عندما راح صوت آخر يروي القصّة:

"يمضي الابن إلى البيت، هناك يجد أباه ويُباشر اعترافه. وخلال كلامه، كان لا يحتمل النظر إلى أبيه. وما إن ينتهي الشابّ من خطابه الذي لطالما كان قد تمرّن عليه، إذ به يسمع صوت بكاء ونحيب. يرفع نظره ليرى أباه يبكي. يُحاول الفتى الإمساك بالرجل الكهل الذي ينهار بين ذراعيه. راح الولد يُفكّر في نفسه: 'يبدو أنّ الأمور ستجري على ما يُرام. فأبي لا يزال يهتمّ بي!' لكنّ أباه يبدأ بتمتمة بعض العبارات من خلال دموعه. في بادئ الأمر، لا يفهم الفتى معنى الكلمات هذه. ثمّ يسمع أباه مُخاطبًا إيّاه بالقول: 'أنا آسف، لو كان بوسعي فعل أيّ شيء لمساعدتك الآن، لفعلت.' يشعر الولد بالارتباك الشديد، ويتراجع خطوة واحدة إلى الوراء وهو يُحاول استيعاب ما يقصده أبوه. ثمّ يتابع الأب قائلاً: 'أعطيتك كلّ ما سألت؛ ولم أُمسك عنك شيئًا. لم يبقَ أيّ شيء بوسعي فعله لك. آه، كم كنت أتمنّى لو كان بمقدوري ذلك'. يشعر الفتى بقشعريرة تلفّ كيانه لدى إدراكه عجز أبيه عن التدخّل لمدّ يد العون له. فجميع الفرص فاتت وضاعت منه."

الصيغة ٦: الأب الغفور

"سكتت جوقة الأصوات وصمتت. ثمّ بعد هنيهة، إذ بصوت جديد يتكلّم بلطف في ظلمة الليل. إنّه يلامس مباشرةً الشابّ الهارب. خرج الصوت وكأنّ المتكلّم يتّكئ على السياج، ويُلامس الشابّ بكتفه، ويقول:

"راح الشابّ يتباطأ في سيره لدى اقترابه من أرض أبيه، غير عالم كيف سيستقبله أبوه. كان يُرغم قدميه على التقدّم بخطىً ثابتة على وقع كلمات الاعتراف التي كانت تجول في رأسه. كان الفتى لا يزال بعيدًا بعض الشيء من بيت أبيه عندما يستوقفه شيء من الغبار المتصاعد على الطريق أمامه، وفي وسط الغبار، إذا برجل! يُسرع الرجل مُهرولاً نحوه، وعندما يقترب الغبار منه، يرى الشابّ أنّ الرجل هو أبوه. فيقف في مكانه وينتظر. يشعر بضعف وهوان في ركبه.

" يُحاول أن يُعدّ نفسه ذهنيًّا لتلقّي الضربات المُتوقّعة أو الصمت الذي يُرافق وجهًا قاسيًا متحجّرًا، لكنّه يبدأ الكلام بصوت متقطّع: 'أبي، أخطأت إلى السماء وأخطأت إليك. ولست مستحقًّا بعد أن أُدعى ابنك....' كان هذا كلّ ما استطاع الفتى تقديمه من خطابه. ذلك، لأنّه حتّى قبل شروع الابن في الكلام، كان الأب يُعانقه ويغمره بذراعيه المفتولتين. وحتّى لمّا كانت دموع الندم تنهمر بغزارة من عينَيّ الابن، كان الأب يسكب بدوره دموع الفرح داخل شعر ابنه المتشابك. يُنادي الأب أجَراءَه بصوت عالٍ من شدّة سروره، ويدعوهم إلى التحضير لاحتفال، ثمّ يضع ثوبه على ابنه، ابنه هذا الذي رجع أخيرًا إلى البيت."

كان هناك في هذا الصوت الأخير شيءٌ بلغ حتى إلى عمق أعماق الأرض وإلى أعلى السماوات لكي تستقي منهما القصّة من جوهرها – لا القصّة التي من صِنعنا نحن، بل كما قُصد لها أن تكون – وكما هي على حقيقتها. كان هناك أمر في ذلك الصوت، ما يجعل الإنسان يطمئنّ إليه، ويعيش في إطار القصّة التي رواها.

وهذا يا أحبائي، يُشكّل النهاية الحقيقيّة لهذه القصّة القديمة.

جدّاتكم

(ملخّص اختياري لقصّة الجدّات)

كانت سلوى في سنّ الثالثة عند موت جدّها. كان رجلاً صارمًا نادرًا ما قدّم أيّ تشجيع لأبيها. كان لسان حال جدّها: "سيشعر بالكبرياء إن كنت أمدحه علنًا." لذا، لم يتفوّه قطّ بالكلمات التي كان أبوها يتوق إلى سماعها. هنا يكمن إلى حدّ كبير السبب وراء تصرّف والدها معها بهذا الشكل أيضًا. إنّ أمرًا كهذا، لا بدّ له أن يؤثّر في المنظار الذي به يرى أحدنا الله. كان "رأسها" يعلم أنّ الله محبّ ولطيف، لكنّ قلبها كان يخاف من الله ويعتبره متطلّبًا ومن الصعب إرضاؤه. فكرة كونه مشتاق إليها، ومعبّرًا عن هذا بدموعه، كان أمرًا من الصعب عليها استيعابه بقلبها فالكذبة كانت تكمن هناك.

مات والد سعاد عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها. هذه الخسارة تُرجمت بالنسبة إليها بالنظرة المغلوطة التي مفادها أنّ الله سوف يهجرها ويتخلّى عنها في نهاية المطاف أو سيعجز عن التجاوب مع حاجتها. أصبحت المسألة بالنسبة إليها بمثابة صراع بسبب الكذبة في قلبها، ومفادها أنّ الله من غير الممكن الوثوق به في نهاية المطاف. أصبحت تنتابها نوبات هلع بسبب خشيتها أن يكون مصيرها الرمي في الشارع لدى تقدّمها في السنّ. إخبارها أنّ الله ليس كذلك، لم يكن كافيًا. كان عليها أن تتصالح مع أبيها السماويّ (حين "رجوعها إلى البيت" لكي تختبر لنفسها) فتنكسر سطوة هذه الكذبة.

الوحدة ٦ | الدرس ٣٠ — العرض العظيم

أعزاءنا:

هل لا زلتم تتذكّرون رسالتنا الأولى إليكم؟ فيها صرّحنا بأنّه علينا أن نكون استثناء على القاعدة. لن يقف أيّ شيء بيننا وبين فوزنا باستمرار بحياة سعيدة. لكنّكم أصبحتم تعرفون الآن أنّنا قد سمحنا للعديد من مدمّري الأحلام بالدخول إلى حياتنا. لكن، ولحُسن الحظّ، اكتشفنا أيضًا بعضًا من صانعي الأحلام. والأهمّ بينها يأتي من مصدر لم تكن أيّ واحدة منّا تتوقّعه عندما كنّا في سنّكم.

أوّل ما حصلت سلوى على كتابها المقدّس، ظننّا أنّه يتألّف من مجموعة مبعثرة من الروايات الخياليّة، ممزوجة مع شيء من التاريخ القديم والقليل من الشعر. آه، كم كنّا على خطأ! ذلك لأنّ الكتاب المقدّس لم يظهر بأنّه على حقّ وحسب، بل تبرهن أيضًا أنّه دليل مدهش لبلوغ أهمّ أحلامنا.

كنّا في رسالتنا الأخيرة قد شبّهنا الله بأب «الولد الهارب». يُعرف هذا بالاستعارة. وهذا يعني أنّ الآب السماوي شبيه بالأب البشريّ من أوجه معيّنة. اكتشفنا في أماكن أخرى من الكتاب المقدّس أنّ الله يُشبَّه بالراعي، وبأمور كثيرة أخرى.

أعزّاءنا: أخشى أن يُشكّل «الولد الهارب» صورة دقيقة عمّا كنّا عليه نحن الثلاثة عندما كنّا في سنّ الشباب. فالشابّ كاد تقريبًا يُخرّب حياته بمدمّري الأحلام التي درسنا عنها معًا، وهكذا كان حالنا.

عندما يقترف الشباب هفوة، مثلما فعلنا نحن الثلاثة، ولا يُسفر عن ذلك أيّ نتائج وخيمة فوريّة، يظنّون أنّهم قد أفلتوا من العقاب. تخيّلوا شابًّا يسكر مرّات عدّة ثمّ يشعر على ما يُرام في اليوم التالي. لا بل هو يتباهى بكبرياء أمام رفاقه أنّ بوسعه الاسترسال في الشرب من دون التأثّر سلبًا بذلك. ليس بوسع هذا الشابّ النظر ٢٠ سنة إلى الأمام لرؤية كيف عمل الكحول على تخريب زواجه، وعمله، وأولاده، وأحلامه الخاصّة للحياة.

يُقرّر شابّ وشابّة ممارسة الجنس قبل الزواج. «ما هو ضرر هذا الأمر»، يسألان، إن كنّا كلانا نرغب في ذلك؟» لكنّهما لا يعرفان أو يتجاهلان احتمالات إصابتهما بأمراض STDs، وبالحَمْل، والعوز، وما يذخرون لأنفسهم من خراب على الصعيدين العاطفيّ والروحيّ.

صراحةً، لعلّ أمورًا كان يصعب علينا جدًّا إدراكها، لماذا كلّ هذا العدد من الناس – ولا يقتصر ذلك على جيل الشباب وحدهم – لكن أناس من كلّ الأعمار ... يُواصلون القيام بأمور تؤذيهم، حتّى مع إدراكهم للأخطار الناتجة عن ذلك.

على قدر ما بحثنا الأمر وتعمّقنا أكثر في ما يُصرّح به الكتاب المقدّس فعلًا، ازداد بذلك إدراكنا لمراعاتنا أفكارًا ملتوية حيال «الخطيئة».

تبيّن لنا أنّ هذا ما يُعلنه الكتاب المقدّس: حتّى أفضل الناس بيننا فاتهم أن يكونوا كلّ ما أمِل الله وخطّط لنا.

أربكنا على نحو خاصّ تصريح الكتاب المقدّس أنّ كلّ الناس أخطأوا وفاتهم بلوغ ما قصد لهم الله أن يكونوا عليه. خلال تلك الفترة، كنّا جميعنا قد ذقنا قسطًا كافيًا من الضيق – وفي معظمه كنّا نحن الذين قد جلبناه على أنفسنا. كنّا بالتأكيد لا نعيش كما قصد لنا الله أن نعيش. وأخيرًا، أصبحنا نحن الثلاثة على استعداد للتسليم بأنّنا أخطأنا ضدّ الله، وذلك على غرار «الولد الهارب» الذي كان قد أخطأ ضدّ أبيه اللطيف والمُحبّ. أدركنا كيف كنّا هاربين منه طيلة حياتنا.

لكنّ هذا قادنا إلى معضلة خطيرة جدًّا. فنحن قرأنا في أماكن عدّة من الكتاب المقدّس أنّ عواقب الخطيئة على المدى الطويل هي الانفصال عن الله والموت. فالخطيئة تُولّد حواجز بين الناس (كنّا نعي هذا تمامًا)، لكنّها تُولّد أيضًا فاصلًا بين الله والناس. لقد قضينا كلّ حياتنا منفصلين عن الله ولم نُدرك حتّى ذلك!

قرأنا أيضًا أنّ الله كامل، عادل بالكامل، مُنصف بالكامل، قدّوس بالكامل، وبارّ بالكامل. المعضلة هي: كيف بإمكان الله العادل والقدّوس بالكامل أن يقبل ببساطة رجوعنا إليه؟ كيف بإمكان الله الكامل والقدّوس بهذا المقدار قد اقترب إلينا ونحن في حالة الخطيئة؟

الإجابة عن هذا فاجأتنا بل أربكتنا. يُعلّم الكتاب المقدّس أنّ الله نفسه قد جاء إلى الأرض كإنسان، في شخص يسوع المسيح. وهذا الإنسان الذي كان أيضًا الله، سمح لنفسه بأن يُقتل بشكل وحشي على صليب. ثمّ بعد أن مات ووُضع داخل قبر، عاد إلى الحياة بعد ثلاثة أيّام.

أظنّ أنّي أنا (سلوى) كنت الأولى لقبول الغفران الذي يُقدّمه المسيح. حتّى لمّا كنت لا أزال فتاة صغيرة، كنت على علم دائمًا بأنّه لا بدّ من وجود الله وأنّ هناك بُعد روحيّ للحياة. لكن لم أبدأ بالتعلّم عن المسيح والكتاب المقدّس إلّا لاحقًا في الحياة.

كانت سعاد هي التالية. لا أظنّ أنّها شعرت فعلًا من قبل بأنّها محبوبة. لم يكن من الصعب عليها أن تؤمن بعقلها. لكنّ جدّتك يا كريم كان قلبها قد تقسّى تحت تأثير جروحها العديدة. كان يلزم محبّة الآب السماويّ الصبور واللطيف لتذويب الثلج الذي كان قد تراكم حول روحها.

أمّا عزيزتنا ليلى فكان يلزمها أطول فترة. فذهنها النيّر والمُتّقد لطالما ساعدها في المدرسة وفي نطاق عملها، لكنّه أوشك تقريبًا أن يمنعها من إيجادها الله صانع ذلك الذهن اللامع. كان لدى ليلى العديد من الأسئلة! أنا وسعاد لم نستطع الإجابة عنها. لكنّ ليلى استمرّت تقرأ الكتاب المقدّس والعديد من الكتب الأخرى. لقد عرفت مدى أهمّيّة ذلك، وفي ظنّي لم يكن بمقدورها تجاهل التغييرات التي رأتها تحصل فينا. أخيرًا، عثرنا على أستاذ بارع وهو ساعد ليلى على إدراك وجود دلائل مقنعة على صحّة المسيحيّة والكتاب المقدّس.

ثمّ بعد سنوات عديدة، وذات ليلة داخل شقّتي الصغيرة، فتحت ليلى ذهنها وقلبها لأبيها السماويّ المُحبّ. قبلت موت المسيح الذي دفع ثمن خطيئتها وهكذا انضمّت إلى فريقنا الصغير على مستوىً جديد بالكامل.

وهكذا يا مروان، ودارين، وكريم – أحفادنا المحبوبين – بلغنا الآن إلى اللحظة الأهمّ على صعيد كلّ رسائلنا إليكم.

إن وُجدت هبة واحدة بإمكاننا أن نعطيكم وإن كان هناك إرث واحد بوسعنا تركه وراءنا لكم، سيكون هذا.

نشتاق أن نراكم ترجعون إلى بيت أبيكم السماوي في سنّ مبكرة. الرجاء، لا تقترفوا خطأ الانتظار وقتًا طويلاً كما فعلنا نحن. نعلم أنّ حياتكم لم تكن كاملة، وتعلمون الآن كم كانت حياتنا بعيدة عمّا كان يجب أن تكون عليه. لكنّنا نأمل ونُصلّي أنّكم ستختارون التعلّم من أخطائنا، عوضًا عن اضطراركم إلى تكرارها.

كم نتوق، إن لم تُقدموا على هذه الخطوة من قبل، أن تقولوا «نعم» للمسيح. فهو يريد أن يجيء ويعيش في داخلكم بروحه القدّوس. يرغب في أن يكون غافر خطاياكم، وربّكم، ورفيقكم، وضميركم، وصديقكم، ومرشدكم، والذي يحبّكم بمحبّته الأصدق والأعمق. لقد أصبح المسيح كلّ ما سبق وأكثر لكلّ واحدة منّا، ونحن نتألّم على كلّ واحد وواحدة منكم إلى أن تختبروا بأنفسكم هذه العلاقة معه.

وعلى قدر ما نُريدكم أن تجدوا الله، هو يتوق إلى عودتكم إلى البيت، إليه، أكثر بكثير من رغبتنا في ذلك.

ذكّرتني سعاد للتوّ كيف أنّ جزءًا من مشكلتنا طيلة سنوات عدّة (مع أنّها بالطبع لا تُشكّل السبب كلّه وراءها) هي أنّه لم يسبق لأحد أن أخبرنا عن السبيل لتكوين علاقة حميمة بالله. قد تستغربون كم هي بسيطة هذه الخطوة. فكلّ ما عليكم فعله هو أن تؤمنوا.

الآن قد تسألون. «ماذا يُفترض فيّ أن أؤمن به بالتحديد؟»

تبدأ العلاقة بالله من خلال الإيمان بأنّ يسوع المسيح وبفضل موته وقيامته سدّد عقاب خطاياكم وشرّع الباب أمامكم للرجوع إلى الله. لستم في حاجة إلى كسب هذه العلاقة. إنّها هبة مجّانيّة قد جرى دفع أجرتها من خلال موت المسيح.

لكن، بقولي إنّ عليكم الإيمان بهذا، لست أقصد مجرّد الإيمان العقلي. فهذا النوع من الإيمان يحصل بواسطة عقلكم وقلبكم، وفي الواقع بواسطة كلّ ما أنتم عليه.

سمعنا مرّةً أحدهم يقول إنّ المجيء إلى المسيح يعني إعطاءك كلّ ذاتك التي تعرفها إلى كلّ الله الذي تعرفه. وكما اكتشفنا نحن الثلاث، ما إن بدأنا نؤمن بالمسيح، حتّى بدأنا فورًا التعلّم أكثر عن الله وعن نفوسنا. لكن كلّ هذا بدأ بتسليمنا

نفوسنا لله. قبول موت المسيح ودعوته إلى دخول حياتنا من أجل تغييرنا من الداخل، تلك كانت الخطوات التي اتّخذناها.

لستم في حاجة إلى رفع صلاة لكي تؤمنوا. لكن غالبًا ما تكون الصلاة سبيلًا جيّدًا للتعبير عن إيمانكم ولترسيخه. لذا، أنا وسعاد وليلى كتبنا صلاة صغيرة لأجلكم. في الواقع، إنّها شبيهة جدًّا بتلك الصلاة التي رفعتها سعاد عند لحظة إيمانها. الصلاة هي التالية:

«أبي السماوي الحبيب:

أنا محتاج إليك. شكرًا من أجل إرسالك يسوع المسيح ليموت على الصليب من أجلي.

شكرًا من أجل قبولي من جديد ومسامحتي. أرجوك أن تأتي وتُغيّرني إلى ما تريدني أن أكونه. آمين.

هذا ما ينطوي عليه الإيمان. وهذا أعظم ما نرجوه لكم.

مع كلّ محبّتنا

جدّاتكم

الوحدة ٦ | الدرس ٣١ — كسرُ الدوّامة

أعزاءنا:

أخبرتُكم القصّة الحزينة عمّا فعله الإدمان على شرب الكحول بزوجي باسم، كما أعلمتكم بما فعله لي. وحتّى بعد رحيل زوجي، لازمني الجرح الناتج عن تصرّفه تجاهي، وهو يغلي في داخلي.

لكنّي وعدت بأن أكون أفضل أمّ ممكنة لولدنا الوحيد ماهر – أبيك يا كريم. الآن وبعد موت أبيه، نذرت بأن أكون له أبًا وأمًّا. وفي ظنّي أنّي كنت أقوم بدوري على أكمل وجه – إلى اليوم الذي بلغ فيه ماهر سنّ الرابعة عشرة. جاء إلى البيت من المدرسة متأخّرًا جدًّا. كنت بدأت أقلق. ولدى دخوله الباب، هرعت لمعانقته، بعد أن رأيته سالمًا. في ذلك الحين، استوقفتني رائحة الفودكا وهي تفوح من نَفَسه.

صرخت في وجه ابني، وصفعته على الخدّ. ومن خلال دموع الغضب، رحت أصرخ لأنّي اعتبرت أنّه سينتهي به الأمر كأبيه.

لازمَ ماهر الصمت. ثمّ تحوّل عنّي وعاد أدراجه عبر الباب قبل إغلاقه وراءه بعنف، تمامًا كما كان أبوه قد اعتاد أن يفعل. أنا انهرتُ وارتميت أرضًا وأجهشت بالبكاء لساعات.

شعرتُ بأنّي وقعت في الشرك. فالأمر عاد وتكرّر مرّات عدّة، وأحسستُ بعجزي عن وضع حدّ له. انتظرت عودة ماهر، غير عالمة ما سأقول له. أخيرًا، من شدّة تعبي وإرهاقي غلبني النُعاس نحو منتصف الليل.

في تلك الليلة السوداء، أرعبني كابوس لن أنساه أبدًا. ففي حلمي مضيت أنا وماهر لنضع بعض الزهور على قبر باسم. وخلال وقوفي هناك باكيةً، إذ بيدٍ عظميّة تخرج من الأرض وتقبض على ماهر من الرّجل وتسحبه إلى تحت حتّى أقفلت عليه الأرض. فاستيقظت صارخةً.

في ذلك اليوم بالذات، جلست مع ليلى وسلوى لكي أسألهما ما العمل.

«أنتِ التي تستطيعين كسر الدوّامة،» قالت ليلى. «فماهر لا يزال بالطبع حديث السنّ، ويُعاني على الأرجح من جرّاء موت أبيه.»

«الدوّامة؟» سألتُ».

« أقصدُ دوّامة الإدمان،» أجابت ليلى. «إنها كناية عن عبوديّة تتكرّر على شكل دوّامات عبر كلّ جيل بحيث يلجأ الأولاد المتألّمون خلال نموّهم إلى حماية أنفسهم وإراحتها باعتمادهم المُخدِّرات أو الكحول كما فعل أهلهم.»

«أوافق،» قلت. «لكن ماذا بوسعي فعله؟ فماهر لم يعد حتّى يُصغي إليّ.»

انتظرَت ليلى للحظة قبل أن تُجيب. ثمّ قالت بكلّ هدوء: «بوسعِك مسامحة باسم.»

«ماذا؟» قلتُ باندهاش. «ما الفائدة من ذلك؟ وهو لا يستحقّ أن أسامحه!»

«كلّا، لا أعتقد أنّه يستحقّ ذلك،» قالت ليلى. لكن هذا لا يهمّنا. أنتِ في حاجة إلى مسامحته لكي تكسري طوق قبضته عليكِ.»

«عن أيّ قبضة تتحدّثين؟» لستُ أنا الذي يسكر!»

ثمّ رفعت سلوى صوتها. «قبضته عليكِ هي غضبكِ، ومرارتِك، وألمك، وجُرحك.»

«ألمكِ وغضبكِ انفجرا على شكل نار محرقة ليلة أمس، عندما بلغت رائحة فم ماهر أنفك. وستستمرّ في إحراقك – وفي إحراق ماهر معكِ – مرارًا وتكرارًا إلى أن تكسري الدوّامة. السبيل الوحيد لذلك يكون من خلال مسامحتك باسم.»

فكّرت لوقت طويل قبل أن أجيب.

«أنا... لا أرى كيف باستطاعتي ذلك،» قلت. «فالألم أكبر من أن أحتمله

«برأيي، جزءٌ من المشكلة،» قالت ليلى، «هو أنّه لم يتسنَّ لكِ رؤية أمثلة صالحة عن المسامحة. فأنا لم يتولّد عندي الانطباع خلال مرحلة نموّنا أنّ أهلنا كانوا ناجحين في التماس المُسامحة أو في تقديمها.»

«هذا التصريح صحيح لكنّه لا يفي بالغرض!» قلتُ موافقةً.

«ليلى هي على حقّ،» قالت سلوى. «فالناس في معظمهم يستصعبون أن يسامحوا، وبالأخصّ مَن سبّب لهم جروحًا بليغة التي هزّت حياتهم من أساسها، ما لم يختبروا ما معنى أن ينالوا هم المُسامحة.»

نظرتُ إلى صديقتيّ بعد أن اغرورقت عيناهما بالدموع. «إذًا، هل الأمر ميؤوس منه؟»

عندئذٍ بدأت سلوى تُخبرني كيف كان بإمكان الله مُسامحتها على كلّ خطاياها من خلال يسوع المسيح.

أعزّاءنا، كان عليّ الانتظار ريثما أكون قد شربت ملئًا من محبّة الله وغفرانه لكي أبدأ بمُسامحة باسم بصدق.

لا أريدكم أن تتخيّلوا أنّي أصبحت أمًّا كاملة. فأنا بقيت من حين إلى آخر أغضب على ماهر. كما أنّه لزم ماهر سنوات عدّة من الصراع مع المُسكر قبل أن يُقرّر بنفسه الكفّ عن الشرب. لكنّ حفرة النيران المُستعرة والتي لا تنطفئ من الألم والسخط، خمدت أخيرًا.

كان بإمكاني فعلًا مُسامحة باسم كما سامحني المسيح.

جدّتك،

سعاد

الوحدة ٦| الدرس ٣٢ صانعو الأحلام

أعزّاءنا:

كثيرون ينظرون رجوعًا إلى حياتهم بأسف ولسان حالهم: «آه، لو...». فما أنجزوه أو لم ينجزوه بعد، غالبًا ما يُطارد زوايا ذاكرتهم، للأمور الحديثة والماضية. ممّا لا شكّ فيه أنّ أعظم الأمور الداعية للأسف والندم هي التي تندرج تحت عنوان «مسائل غير محلولة بين الناس». مثلًا، أفراد ضمن العائلة الواحدة يختارون التمسّك بإساءة ما، غير آبهين بالمحافظة على العلاقة، أو صداقات تتعرّض للسحق تحت ثقل عدم المسامحة، أو تتضوّر جوعًا حتّى الموت في بحر من الصمت.

انطلق أكثر من كاتب مفكّر في عمليّة إعادة كتابة ماضيه. وعادةً ينتهي بهم الأمر إلى قائمة أعادوا فيها ترتيب القِيَم. إليكم مجموعة من قوائمنا نحن:

لو تسنّى لي أن أعيش حياتي من جديد –

١. *لضحكت أكثر في العلن.*
٢. *لأكلت المزيد من البوظة وقدرًا أقلّ من الفاصوليا.*
٣. *لاهتممت أقلّ برأي أصدقائي وأكثر برأي الله.*
٤. *لانتظرت مطوّلًا قبل إسراعي للقيام بأمور لا أعرف عنها إلّا القليل.*
٥. *لأصغيت بأكثر انتباه إلى أقوال الأكبر منّي سنًّا (عوضًا عن التفكير بأنّي أعلم الأمور سلفًا).*
٦. *لكشفت ما في قلبي ولم أقلق كثيرًا بشأن إصابتي بأذًى ما.*
٧. *لقلتُ لله «سأفعل!» في وقت مبكر أكثر من حياتي.*
٨. *لعشتُ حياتي ولم أكتفِ بمجرّد مشاهدة الحياة في الكتب أو الأفلام.*
٩. *لتعلّمت العزف بمهارة على آلة موسيقيّة.*
١٠. *لابتكرت سبيلًا ما لمساعدة الشحّاذين عوضًا عن التظاهر بأنّي لم ألاحظهم.*
١١. *لما راعيت أيّ مرارة للحظة واحدة أكثر ممّا يلزم لطرحها جانبًا، حالاً بعد الانتباه إليها.*
١٢. *لذكّرت نفسي كلّ يوم بأنّ «لا» هي عبارة مُحرِّرة جدًّا، ويمكن التفوّه بها بطريقة غير مؤذية.*
١٣. *لما انتظرت الآخرين لأخذ الخطوة الأولى في قول: «أنا آسف،» «أحبّك،» أو «دعونا نتكلّم».*
١٤. *لكتبت رسائل أُعلم فيها الذين أحبّهم أنّ ما هم عليه هو أهمّ ممّا يقومون به.*

آه، انتظروا. في ظنّنا أنّنا فعلنا هذا!

أيّها الأحفاد الأعزاء، نحن نتطلّع رجوعًا إلى حياتنا مفكّرين في كلّ ما كنّا لنقوم به بشكل مختلف لو تسنّى لنا العودة إلى الصبا. غير أنّ هذه الهبة لم تُعطَ لنا، لكنّها أُعطيت لكم أنتم!

هل لا زلتم تتذكّرون منذ وقت طويل في بداية السنة، عندما طلبنا منكم إعداد قائمة بإجاباتكم عن السؤال: «ما هو أكثر شيء ترجونه في الحياة؟»

ما نرجوه ونُصلّيه لأجل كلّ واحد منكم أن تكون هذه السنة قد أسفرت عن بعض التغيير على صعيد أحلامكم لحياتكم. كما أنّنا نعتقد أيضًا أنّه بات لديكم فكرة أفضل عمّا قد يُكلّفكم تحقيق أحلامكم. حلمنا لكم أن يُحالفكم النجاح في كلّ ما ترغبون فيه. وحتّى أكثر من هذا، نتمنّى لكم اكتشاف كلّ ما لدى أبيكم السماوي المُحبّ من رغبات صالحة لكم. صلاتنا أن يُصبح حلمه حلمكم.

نحن نحبّكم
جدّاتكم

الوحدة ٦ | الدرس ٣٣ الاحتفال الأخير

أعزاءنا:

يؤسفنا نحن الثلاثة أن يكون هذا اليوم قد حضر – ونتساءل أيّ تأثير لهذا فيكم. فخلال معظم هذه السنة، عبرنا الزمان والمكان من خلال هذه الرسائل لكي نقول ما لم نقله عندما كنّا معكم وجهًا لوجه. يسرّنا أنّنا أقدمنا على هذا الاختبار، كما صلّينا لكي يُساعدكم مجهودنا جدًّا على رؤية أحلامكم تتحقّق.

هل لا زلتم تتذكّرون رسالتنا الأولى لكم؟ كانت قد استُهلّت بالقول: كان الأمر قد بدأ بشكل سهل وسلس؛ سنكون بمثابة الاستثناءات على القاعدة. أحلامنا ستتحقّق.....» وكما بتّم تعلمون الآن، لم نكن حكماء كما كنّا نظنّ. لكنّنا مقتنعون بأنّ الأمور قد تختلف بالنسبة إليكم. فباستطاعتكم رؤية أحلامكم وأهدافكم تتحقّق، وبالأخصّ إذا عدتم إلى بيت الآب السماويّ، كما فعلنا نحن في نهاية المطاف.

لقد آن الأوان لكي نحتفل. لقد أتممتم كلّ ما هو مُقرّر! لقد بقيتم معنا عبر كلّ الألعاب، والذكريات، والتطبيقات العمليّة، والأسئلة، والأحاجي. كان القصد من كلّ هذا إعدادكم لـ «مراسيم العبور» التي تصلون إليها خلال هذه المرحلة من حياتكم.

وكما بتّم تعلمون الآن، المشاكل المرتبطة بالمُخدِّرات، والكحول، والجنس قبل الزواج، هي أعمق بكثير من عواقبها الواضحة على الصعيدين الجسديّ والاجتماعيّ، مهما كانت فظيعة. هذه الأمور بإمكانها إماتة قلوبكم عن كلّ الأمور المدهشة التي تخبّئها لكم الحياة.

بإمكانها أيضًا مهاجمة كلّ واحد منكم كشخص – ذاتكم الحقيقيّة، ما أنتم عليه فعلًا – ذلك الجزء منكم الذي تحبُّه أكثر من أيّ شيء آخر، والذي يريد أبوكم السماوي تجهيزه لأبديّة معه. كم من السهل علينا أن نخسر ذواتنا في خضمّ كلّ أنواع الذات الخادعة، والتي ننفق في سبيلها القدر الكبير من طاقاتنا، مراعين الأمل في غير محلّه بأن نكسب قبولًا – وهذا مضيعة للوقت بالكامل، إن كنتم تريدون رأينا.

نحن طالبنا معلّمتكم بالشيء الكثير في هذه الفترة الأخيرة التي تقضونها معًا. ذلك لأنّ «مرسوم العبور» يستلزم النجاح في الاحتفاظ بعددٍ من الأمور التي جرى اكتسابها. مهمّتنا الختاميّة تبدو في نظرنا في غاية الروعة – وهي أن نعطيكم بركاتنا لتعزيزكم وتأييدكم، يا أحفادنا الأعزّاء.

"عزيزتي دارين:

لا يسعني التفكير فيكِ من دون رؤية عزمكِ الثابت على التقدّم إلى الأمام متحدّيةً الرياح. أستطيع أن أرى فيكِ ما هو أكثر من مزيج من أمّك وأبيك. لم يكن هناك مَن هو شبيه بك بالتمام، ولن يكون. لديكِ مكان فريد لكي تملئيه في هذه الحياة وفي الحياة العتيدة. ولئن وُجد عندي آلاف الأمور أودّ قولها، لكن سأقول ما هو ضروري فعلًا: الله يُحبّك جدًّا. لن تَجِديه أبدًا وذراعاه مكتوفتان أو وراء ظهره. سوف يبقى ساهرًا عليك دومًا وستكونين في وسط قلبه.

لتتبارك حياتكِ بالمعرفة القلبيّة بأنّك أنتِ حدقة عينه.

مع كلّ محبّتي،
جدّتك،
ليلى

"عزيزي مروان:

لم تكن الحياة سهلة عليك. جاء إدمان أبيك على الكحول لكي يُفقدك قوّته وحضوره. لكنّ جرحًا عميقًا كهذا، لا يعني أنّ الله قد حجب محبّته عنك. ولكن على عكس هذا بالتمام، فهو يسمح بالجراح لأنّها تُشكّل أضمن سبيل إلى دخول القلب. أنت تعلم من قبل أنّ الحياة ليست آمنة، لكن يبقى السؤال، هل أنت على علم بأنّها صالحة؟ أظنّ أنّك تعلم. إنّها إلى حدّ ما أشبه بالله نفسه. الله هو صالح بالتمام، لكنّي لا أظنّ أنّ شخصًا يعرفه معرفة جيّدة، ينظر إليه على أنّه «آمن» أو «لطيف» فقط. فالله أكثر بكثير من ذلك، إنّه المحبّة الكاملة. بيت القصيد هو أنّي أباركك، وهذا هو حال أبيك السماوي أيضًا. فأنت مبارَك بالرجاء والشفاء والعون عند الحاجة.

هذه هي صلاتي لك،
جدّتك،
سلوى

عزيزي كريم:

يا للغرابة في كتابتي لك هذه الرسالة. فالحظوظ كبيرة بأنّي لن أكون موجودة بعد عندما تقرأها. آه، كنت أتمنّى أن أرى ابتسامتك وأنت تشقّ طريقك عبر الحواجز والدروس التي خطّطنا لها. لقد أخبرتك أمورًا كثيرة لكن ليس عمّا اختبرناه! لا أفترض أنّه ستتسنّى لي فرصة رؤيتك تهيم بحبّ شخص للمرّة الأولى. أو أن يكون بوسعي أن أقدّم لك تعزية محسوسة متى انكسر قلبك للمرّة الأولى (وحتّى لو بدا هذا صعبًا ومميتًا، فهو ليس كذلك.) لن تكون لنا فرصة أخرى للمشاركة في الدموع والضحك. كما أنّي رجوت حتّى أن أرى أولادك ذات يوم. لكن على كلّ هذا أن ينتظر لحصوله في زمن ومكان آخرَين، إن كان الله يستجيب صلواتي لأجلك. لكن ما نتشارك به حقًّا هو محبّتنا. فالمحبّة هي أبدًا الرابحة، وأنت يا عزيزي كريم، كنت ولا تزال محطّ محبّة الله، الذي هو أكثر ما يهمّنا. ليتك تحظى سريعًا جدًّا بطريق العودة إلى بيت الآب السماوي – إن كنت لم تأخذ هذه الخطوة بعد. سأبقى في انتظارك.

مع محبتي،
جدّتك،
سعاد